قبسٌ

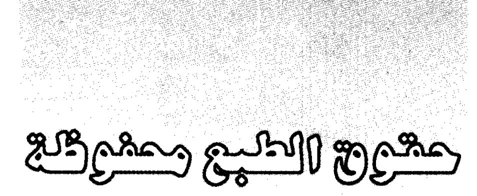
من سيرة أمهات المؤمنين

زوجات الرسول ﷺ

تأليف

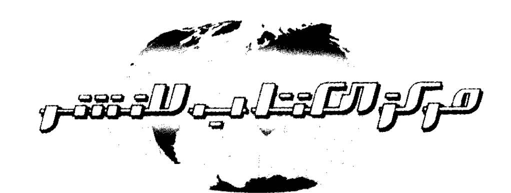
الدكتور/ موسى الخطيب

مركز الكتاب للنشر



الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م



مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
ت: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس : ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١شارع ابن النفيس- المنطقة السادسة- ت:٢٧٢٣٣٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

صدق الله العظيم

تصـدير

إن الإنسان ليجيش صدره بالمشاعر والأحاسيس وهو يسطر هذه الكلمات عن بيت النبوة، وما أدرانا ببيت النبوة، إنه بيت رسول الله ﷺ، بيت ترقبه السماء بالعون، وتمطوه بالوحى، وتحفه بالعناية، وتزوره الملائكة فى كل حين، وفى جنباته ينزل الروح الأمين، وتُتلى آيات الذكر المبين، وتتوارد فى حناياه أشعة النور الأسنى، وتصعد من رحباته الدعوات والابتهالات إلى الأفق الأعلى.. وتشمل كل من فيه نفخات الرضوان وتغمر أهله بالبركات والبر والإحسان.

وفى هذا الكتاب الذى بين أيدينا سوف نتحدث بعون الله تعالى وتوفيقه عن هؤلاء الزوجات - اللاتي كرّمهن الله من بين النساء فجعلهن أزواجًا لخير خلق الله قاطبة، وصفوته من عباده، واعطاهن شرفًا لم تنله غيرهن من النساء الأخريات، قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[1].

لقد جعلهن الله فى مكان القدوة بالنسبة لغيرهن فلابد من أن يكن على غاية مُثلى من الأدب وحُسن الأخلاق ورفعة السلوك لتتحقق هذه القدوة، ومن أولى منهن بذلك وهن الملاصقات لسيد الخلق الذى يضع التشريع للناس بهذه القدوة؟ وقد جعلهن الله أمهات المؤمنين، والأم يسير على هديها أبناؤها، ويهتدى بفعلها أولادها وأحفادها.

وكان النبى ﷺ أكرم زوج حين يكون فى بيته يكون في مِهْنة أهله، وحياته ﷺ فى بيته تبدو رائعة فى إنسانيتها، فقد كان يؤثر أن يعيش بين

(١) الأحزاب: ٣٢، ٣٣.

أزواجه رجلاً ذا قلب وعاطفة ووجدان[1]، ولم يحاول - إلا فى حالات الضرورة القصوى - أن يفرض على نسائه شخصية النبى لا غير، ونحن اليوم نقرأ ما وعَى التاريخ من مرويات عن تلك الحياة الزوجية، فيبهرنا ما فيها من حيوية فياضة لا تعرف العقم الوجدانى، ولا الجمود العاطفى، وما ذاك إلا لأنه ﷺ كان سوىّ للفطرة، فأتاح بذلك لنسائه أن يملأن دنياه الخاصة حرارة وانفعالاً، وينحين عنها كل ظل من ظلال الركود والفتور والجفاف.

وتاريخ الإسلام يعترف لهؤلاء السيدات الكريمات، بأنهن كن دائمًا فى حياة المصطفى ﷺ، يصحبنه حين يخرج فى مشاهده ومغازيه، ويهيئن له من ذلك كله ما يُرضى بشريته، ويغذّى قلبه ويمتّع وجدانه، ويجدد نشاطه، فكان له من ذلك كله ما أعانه على حمل العبء الثقيل واحتمال ما لقى فى سبيل دعوته الخالدة.

وقد عاش رسول الله ﷺ ما عاش، فتّى القلب حتى بعد أن جاوز الستين، حىّ الوجدان حتى يوم رحل عن هذه الأرض وأغمض عينيه فى حِجرْ أحب نسائه إليه، وأحظاهن عنده[2].

ولقد أكثر اعداء الإسلام الكلام حول زواج النبى ﷺ وتعدده متخذين من ذلك حجة للنيل من الإسلام ورسوله ﷺ ولكنهم كانوا واهمين..!

فالتعدد نظام قديم تفرضه دواعى الفطرة السويّة، ويقره الذوق السليم، وإن المرأة لتقبل المشاركة طواعيةً مع زوج سوىّ التكوين، كامل الخُلُق عن أن تكون منفردة مع زوج شائن يحيل حياتها إلى جحيم لا يطاق!

ولم يكن التعدد بحال من اختراع محمد كما زعم المستشرقون[3]، ومن يستلهم التاريخ الإنسانى يجده قد شاع قبل محمد ﷺ بأزمان.. ذلك أن الأمم القديمة كانت كلها تمارس التعدد، فالعبريون عدّدوا من عهد قديم،

---

(١) وانظر كتاب السمط الثمين للمحب الطبرى: ص ٨ - ١١.

(٢) كتاب نساء النبى للتدكتورة بنت الشاطىء.

(٣) قصة الحضارة؛ ول ديورانب: ٧٠٨.

والتوراة أباحت التعدد ولم تحدد للعدد، ثم حدّده التلمود[١]، وبلغ عدد نساء سليمان مائة امرأة[٢]، وحدّد الربانيون العدد بأربع مستدلين بأن يعقوب جمع أربع زوجات[٣]، وما زال اليهود يعدّدون زوجاتهم فى أوربا إلى قرون الوسطى، وما زالوا يمارسونه إلى اليوم فى العالم الإسلامى[٤].

وكان المصريون القدماء يعدّدون الزوجات فى عهد ديودور الصقلى، وكان نبلاؤهم يستمتعون - مع التعدد - بالإماء وما ملكت اليمين، وشاع نظام التعدد عند الفرس والرومان والهنود القدماء والميديين والبابليين والآشوريين وبعض طوائف المسيحية حتى عصر جستنيان الذى حظر التعدد، ولكنه لم ينجح فى حظره، إذ لم يخضع له إلا قلة من المفكرين، أما أكثر الشعب فلم يعيروه طاعة[٥].

فلا عجب أن شاع نظام التعدد فى جزيرة العرب قبل الإسلام، وبلغ حداً وجد معه أبو الحسن المدائنى زاداً يؤلف منه كتابًا فيمن جمع أكثر من أربع[٦].

ولم يكن محمد ﷺ بدعا بين الرسل الذين تزوجوا أكثر من واحدة، ولكنه كان واحداً منهم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾[٧].

إنه كغيره من الأنبياء جميعهم - عدا اثنين منهم هما يحيى وعيسى[٨] - تزوج وأنجب، قال الله تعالى:

---

(١) حضارة العرب لجوستاف لوبون: ٤٨٣، وقصة الحضارة: ١/ ٧٠، والنظم الاجتماعية والسياسية لمحمد جمعة.

(٢) سفر التثنية: إصحاح ١٧، وتاريخ الطبرى: ١/ ٢٦٠.

(٣) شعار الخضر فى الأحكام الشرعية الإسرائيلية للقرائين: ص٨٣، ترجمة وشرح مراد فرج.

(٤) النظم الاجتماعية والسياسية لمحمد جمعة: ص٦٨.

(٥) مركز المرأة فى الإسلام للسيد أمير على الهندى: ص٣٤ - ٤٤.

(٦) الفهرست لابن النديم: ص ١٠٢، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى: ١٤/ ١٣٣.

(٧) الأحقاف: ٩.

(٨) أما يحيى فقد جعله الله عازفًا بطبيعته عن النساء لا يرغب فيهن، وبشّر الله أباه بذلك حين قال له على لسان الملائكة ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وعيسى عليه السلام رفعه الله إليه ولم يمكث فى الأرض.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) ﴾[١].

إنه بشر.. فيه غرائزهم وميولهم الفطرية، لكنه فى الكمال الإنسانى والأدب والأخلاق غاية لا تُدرك، ولقد خُيِّر ﷺ بين أن يكون ملكًا نبيًا أو عبداً نبيًا، فاختار أن يكون عبداً رسولاً..!

فإذا عاب بعض الجهلاد، أو الموتورين الحاقدين، عليه زواجه فإنما هم يعيبون على بشر أن يتكيف مع غرائزه بشكل سليم، وبوحى إلهى وتدبير سماوى عظيم، وإن مما يفخر به الإسلام أنه لم يدعُ إلى إماتة الغرائز، بل إلى تنظيمها وضبطها وتوجيهها الوجهة الصالحة.

لقد كانت زوجته الأولى، السيدة خديجة، تقارب الخمسين، وكان هو فى عنفوان الشباب لا يجاوز الخامسة والعشرين، وقد اختارته زوجًا لها لأنه الصادق الأمين، وعاش معها إلى يوم وفاتها على أحسن حال ـ من السيرة الطاهرة، والسمّعة النقية، ثم وفىّ لها بعد موتها، فلم يفكر فى الزواج حتى عرضته عليه سيدة مسلمة رقّت له، فخطبت له السيدة سودة بنت زمعة، ثم بعد ذلك السيدة عائشة بإذنه ـ ولم تكن هذه الفتاة العزيزة عليه تسمع منه كلمة فى حق زوجته الراحلة غير ثنائه عليها ووفائه لذكراها.

وما تزوج عليه السلام بواحدة من أمهات المسلمين لما وصفت به عنده من جمال ونضارة، وإنما كانت صلة الرحم والخوف على بعضهن من المهانة هى الباعث الأكبر فى زواجه بهن، ومعظمهن كن أرامل فقدن الأزواج أو الأولياء، وليس من يتقدم لخطبتهن من الأكفاءَ لهن إن لم يفكر فيهن رسول الله ﷺ[٢].

لقد ابتغى من الزواج بعد وفاة السيدة خديجة الخير للإسلام والمسلمين، وذلك أنه كان يعمد حينًا إلى أن يزيد القريب قرابة، وأن يضيف إلى أحبائه محبة، وإلى المخلص لله ورسوله إخلاصًا.

---

(١) الرعد: ٣٨.

(٢)وانظر كتاب حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للمرحوم العقاد.

وكان يتوخى تارة أن يستكثر من الأصهار ليناصروه ويؤازروه فى نشر دين الله، فى مجتمع يعتبر المصاهرة صلة حميمة تستوجب النصرة والوفاء.

ومن هنا يظهر لنا أن زواج النبى ﷺ كان للدين لا للدنيا، وكان للحكمة لا للهوى، ولتوطيد الدعوة ونشرها وتقويتها، لا للمتعة أو التباهى والاستكثار.

وليس من شك فى أن زوجات الرسول ﷺ أفدن الإسلام بكثير من الحقائق الوثيقة الصلة بالدين، فقد أخبرن بسلوك النبى ﷺ وأعماله التى لم يرها غير زوجاته، وهن اللاتي كن منابع التشريع المستنبط من أحوال لا يعرفها غير النساء ولا يعلمها إلا أزواجهن، وبعضها يختلف من امرأة إلى أخرى، وهن اللاتى روين أحاديثه الشريفة التى قالها فى بيته ولم يسمعها غيرهن، وصحّحَن رواية ما سمعه غيرهن إذا كان على خلاف حقيقته، ولبعضهن آراء فى الفقه وأسباب نزول بعض الآيات القرآنية الكريمة، ولا عجب فى هذا فقد كن حريصات أشد الحرص على تطبيق مفهوم هذه الآية الكريمة:

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾[١].

وقد روى الثقات كثيراً من الأحاديث الشريفة[٢]. وغاية الأمر أن الزواج عند محمد هو تكليف وتشريف، تكليف لأنه زواج بأمر الوحى، وتشريف لمن حظين عنده من الزوجات والأسر بهذا النسب النبوى الكريم.

ولو أننا نظرنا إلى حياة الأمهات الطاهرات ـ رضى الله عنهن ـ فى بيت الزوجية، لوجدناهن على غاية من البساطة والفاقة، فالمساكن صغيرة، وغالب القوت التمر وخبز الشعير والماء، وقد يمر الهلال والهلالين ولا يوقد فى بيت من بيوتهن نار لطبخ الطعام.

---

(١) الأحزاب: ٣٤.

(٢) وانظر «لماذا عدّد النبى زوجاته ـ ص ٥٣ وما بعدها ـ د. أحمد الحوفى ـ ط. نهضة مصر.

إنها حياة عِفّة وتقشف وطهارة، حياة علم وذكر وقرآن وعبادة، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾[١].

صلوات الله وسلامه على النبى الآمين.

ورضى لله عن أمهات المؤمنين.

وإذا نقدم للقراء هذا الكتاب فإننا نأمل أن ينفع الله به من يطلّع عليه، وأن يعتز كل مسلم ومسلمة بدينه ويُرضى ربه فيه: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) ﴾[٢].

المؤلف

د. موسى الخطيب

---

(١) الأحزاب: ٢٨، ٢٩.

(٢) آل عمران: ١٩٣، ١٩٤.

أم المؤمنين الأولى ووزير النبى ﷺ
السيدة خديجة بنت خويلد
رضى الله عنها

«أتى جبريل النبى ﷺ فقال: هذه خديجة أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرّها ببيت فى الجنة لاصخب فيه ولا نصب» (متفق على صحته).

فقال ﷺ: «يا خديجة، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك، فأجابت: الله السلام، ومنه السلام وعلى جبريل السلام».

(رواه البخارى)

«والله ما أبدلنى الله خيراً منها؛ آمنت بى حين كفر الناس، وصدّقتنى إذ كذّبنى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء»

(أخرجه أحمد فى مسنده وابن عبد البر فى الاستيعاب من حديث عائشة عن النبى ﷺ)



[١] حين أشرق على الدنيا ميلاد مُحمدٌ بن عبد اللّه كانت الفتاة الطاهرة خديجة بنت خويلد حسناء فى سن الزواج.

وقد أضاف إلى حُسنها وجمالها عراقة الحسب والنسب، فتزوجت من (عتيق المخزومى) فمات تاركًا لها بنتًا ومالاً، وتزوجت من بعده (أبا هالة بن زرارة التميمى) فمات وترك لها طفلين.

ورفضت خديجة الزواج بعد موت زوجها الثانى، وردّت كبار قريش: أغنياءهم وأشرافهم، وقد كانوا يرجون الزواج منها، ويبذلون فى سبيل ذلك ما يملكون من مال، ويستشفعون لديها بأقاربها ورجال بيتها، متمنين أن يكونوا أزواجًا لخديجة ذات الحسب والنسب، والشرف والجاه، والتى ظلت محتفظة بجمالها ونضارتها، برغم مرور الأيام والسنين، ولكن أنّى لهم ذلك وخديجة قد صدّت نفسها عن الزواج، وأعرضت عن كل من تقدموا لها يطلبون يدها، وصرفت وقتها فى تدبير شئونها بمشورة أخيها وبمعاونة بعض أقاربها، ووقفت حياتها لعمل البّر وإغاثة الملهوف[١]!!

وكان فى بيت قريب من بيتها سيِّدة إسمها آمنة بنت وَهْب مثلهاً، مات زوجها بعد قليل من عُرْسهما، وخلّف فى جوفها ولداً، فأبت أن تتزوج ووهبت نفسها لابنها مُحمّد، وصارت حديث الناس فى الوفاء والصبر والإخلاص، وقد بلغ ابنها هذا السادسة، وهى ماضية فى عزمها على أن تعيش لابنها وحده.

فعزمت خديجة أن تكون مثل آمنة الصابرة، المُضحية فتعيش لأبنائها وحدهم، ورأت ألا تدع مالها عاطلاً حتى لا ينفد فى نفقات المعيشة، فتاجرت فيه وهى محتجبة فى بيتها، فكانت تستأجر رجالاً يعملون فى التجارة لحسابها لقاء أجر ويكون لها ربح التجارة وللأجراء أجر العمل.

ولكنها لم تسلم من السُّخرية اللاذعة، حين دخلت هذا الميدان الذى يُضنى الرجال[٢].

---

(١) المظلوم المضطر يستغيث ويتحسَّر.

(٢) يضنى الرجال يتعبهم

ومن ثم فقد أصمّت خديجة أذنيها عن كلام الناس، ومضت فى طريقها الذى أحبته، ووجدت فيه لذة صرفتها عن الأزواج ودفعتها إلى الزيادة والافتنان.

فأخذت تكبر فى أعيُن الناس، وكلما مرّت الأيام زادوا لها احترامًا وتبجيلاً، وقدروا جهادها وقوة قلبها، كما قدّروا طيبتها وعطفها واهتمامها بأبنائها، والمشاركة بمالها فى كل مكرمة كما يشارك رؤساء قريش وفوق ما يبذلون.

وأخذت النساء تفخرن بخديجة على الأزواج، وتثبتن لهم قُدرة المرأة وقوتها، وأنها لا تقل عن الرجل، وأن النساء لو خرجن إلى الحياة، لأثرين[1] كما أثرت خديجة، وأقنعن الرجال كما أقنعت.

ومع تزايد هذا الثراء، واتساع تلك الشُّهرة، كان طمع رؤساء مكة وشبابها يتزايد فى الزواج من خديجة، يتوسلون إليها ويبذلون ما فى وسعهم لهذا الأمر، لكنها غدت فى شُغَل عن هذا بما هى فيه، لا تفكر فى الزواج ولا تنظر إليه، ولا تسمع لأولئك المتوسلين، وكلما تقدمت بها السن زادت فى أعين الرجال حلاوة، وزادت رغبتهم فى زواجها.

حتى يئس الرجال من إمكان الزواج بخديجة، وإن كان لا يزال هذا الأمل يُداعب خيال بعضهم بين الحين والحين، فيتمنون من كل قلوبهم لو استطاعوا أن يحققوه!!

لكن هؤلاء الطامعين لم يجرؤ واحد منهم على محادثتها فى ذلك الأمر، فقد كانت لها هيبة تأخذ بقلوب الرجال وتعقد ألسنتهم، وكان لها شخصية يصغر أمامها الكبراء، فليجئون إلى الوسطاء والوسيطات، لكنها كانت ماضية فى الطريق الذى رسمته لنفسها.

---

(1) أثرين: (الثراء) كثرة المال. يقال: إنه لذو ثراء أى إنه لذو كثرة مال. وأثْرَى الرجلَ أو المرأة - أى كثرت أمواله.

وذات ليلة كانت نائمة فى فراشها، بعد سهرة إمتدت إلى منتصف الليل، حسبت فيها أثمان السلع التى أرسلت إلى اليمن، وقدرت ما يُرجى لها من الربح، بعد حساب النفقات وما يخرج من الصدقات.

فإذا بها ترى رؤيا منامية.. رأت فيها أن شمسًا عظيمة مضيئة أشد ما يكون الضوء جمالاً وجلالاً، تهبط إلى دارها من سماء مكة فيغمر ضوؤها ما يحيط به من بقاع وأماكن، ثم انبعث النور إلى ما حولها من مكة، ثم امتد إلى ما بعد مكة، حتى غمر بقاع الأرض كلها.

فهبَّت[1] من نومها، وفتحت عينيها تنظر فى جوانب الدار، فوجدتها كما هى لم تتغير، ووجدت جواريها نائمات مستغرقات فى نومهن، والدنيا ساكنة، والليل هادىء، فجلست فى فراشها تفكر فى تلك الشمس التى كانت فى الدار، حتى بدت تباشير الصباح، فارتدت ملابسها، ودعت بعض خدمها، وأسرعت إلى بيت ابن عمها (ورقة بن نوفل)، وكان من أهل العلم والحكمة الذين نبذوا عبادة الأوثان، واعتزلوا عابديها، فى انتظار ظهور نبى آخر الزمان الذى بشّرت به التوراة كما بشّر به الإنجيل. وقصّت خديجة رؤياها على ابن عمها ورقة فاستبشر بما رأت، وهنأها فى سرور قائلا:

(لك البُشْرى يا خديجة يا ابنة العم! فهذه الشمس المضيئة علامة على قُرْب ظهور النبى العربى الذى أظلّ زمانه، ودخولها دارك دليل على أنك أنت التى ستتزوجين منه).

فقامت خديجة إلى بيتها، وجرّها كلام ابن عمها ورقة إلى تذكر كلام سمعته فى الماضى حين كانت مع نساء قريش يسمرن فى عيد لهن، فمرّ بهنّ رجلٌ غريب عن قريش، وتمهّل الرجل فى سيره، وأخذ يدنوا[2] منهن شيئًا فشيئًا، يتأمل منظرهن هذا، ومن حولهن الأصنام والأوثان[3]، ثم طافت بشفتيه شبه ابتسامة، ولم يملك نفسه فهتف قائلاً:

---

(١) هبَّت: استيقظت.

(٢) دنا يدنو دنُواً ودنَاوه: قَرُب فهو دَان (ج) دُناه.

(٣) عبادة أهل مكة قبل مبعث النبى ﷺ.

يا معشر نساء قريش!! إنه يوشك أن يُبعث فيكن نبى قرُب ظهوره، فأيتكن استطاعت أن تكون زوجًا له فلتفعل.

وتفرّس النساء فى وجه ذلك الرجل فعرفن أنه رجل يهودى بعيد عن مكة، فحسبوه أنه قصد بقوله هذا الاستهزاء بهن، وتعييب آلهتهن، فهّب النساء يسببن الرجل ويشتُمنه، وأخذن يرمينه بالحصى حتى ولى مدبرا، ولم تشاركهن السيدة خديجة، وكانت فى قومها محل إجلال واحترام، حتى لقبوها تارة بالطاهرة وتارة بسيدة نساء قريش.

عادت السيدة خديجة إلى دارها بين المصدقة والمكذبة، تقول لنفسها فى حيرة:

قد يكون كلام اليهودى، وما قاله ورقة حقًا، عن قُرْب مبعث نبى من العرب من سُلالة إسماعيل عليه السلام، يدعو الناس إلى توحيد الله؛ ملةّ إبراهيم عليه السلام، ويصرفهم عن عبادة الأصنام التى هى عبادة الشيطان الرجيم... فما العلاقة بين هذه الشمس الكبيرة وبين ذاك النبى؟! استطاع ورقة أن يحدد أننى سأكون زَوْجُه؟!

حتى بلغت بيتها، فانصرفت إلى عملها، وأصبحت هذه الرؤيا وذلك التأويل شغلها الشاغل، وإن لم تتحدث به إلى أحد.

[٢] نشأ مُحمّد بن عبد الله يتيما، فقد مات أبوه وهو بعُد جنين فى بطن أمه، وماتت أمه وهو ما زال طفلاً لا يتجاوز عمره ست سنين، تاركة إياه لكفالة جده عبد المطلب سيّد قريش وقتئذ، ومات جده وهو ابن ثمانى سنين، بعد أن أوصى به عمه أبو طالب خيراً.

وبدافع تلك الوصية والإشفاق على ابن أخيه اليتيم، رعى أبو طالب ابن أخيه الشقيق صبيًا ويافعا[١]، فسرّه أن يراه سريع النمو فى جسده وعقله ورشده، فازداد حبًا له، وتعلقًا به، وأنسًا بصحبته، وحرصًا على شعوره.

وقضى مُحمد فترة طفولته وصباه فى منأى عن عبث الأطفال وهذَر الصبا، إذا شارك أقرانه ولدّاته فى لعب ابتعد عن مشاكساتهم وخصافهم[٢]، وإذا اجتمع هو وأترابه فى مجمع لهو كان بينهم العفيف المؤدب.

وخطا مُحمد نحو الشباب مجتنبًا هزله وعبثه، معصومًا من زلاّته ونزواته، فلم تعرف قريشًا يومًا عنه أنه مال مع غواية أو لان واستهوته المغريات التى كانت تحفل بها سهرات مكة، ولم يعلم أهل مكة عنه مرة أنه حاد عن طريق الفضيلة، أو سلك غير مسلك الاستقامة، أو قال قولاً غير الصدق والحق.

فحُمدّ منذ كان طفلاً إلى أن صار شابًا، كان ساميًا فى عفّته، عَلمًا فى صدقه، مثاليًا فى أمانته، فلم يجتمع لواحد من شباب مكة ما اجتمع له من تلك الصفات الصالحات، فاشتهر بينهم بالصادق الأمين تمييزاً له عن سواه، كما لقبته قريش بالزكى، وبالطاهر النقى.

وكان أبو طالب رغم ما كان لأبيه عبد المطلب من المجد والسؤدد فى قريش، رجلاً كثير العيال، قليل المال، يعمل فى التجارة ليكسب رزقه ورزق أولاده، ولكن فقره لم يمنعه أن يكون سيّد بنى هاشم، المُطاع بينهم، يحترمه

---

(١) اليافع (فتى أو فتاه): من شارف الاحتلام وناهز البلوغ (ج): أيفاع.

(٢) (الخصّاف): من يخصف النعال.و ـ : الكذاب كأنه يخرز القول على القول وينمّقه، وخصافهم أى كذبهم.

أهل مكة ويجلّونه، رغم ما كان من ضعف الرياسة وبدء انحلالها فى بنى هاشم، بعد موت عبد المطلب.

وذات يوم تهيأ أبو طالب للسفر إلى الشام فى ركب للتجارة، فتعلق به ابن أخيه الناشىء، فرقّ له أبو طالب وقال: والله لأخرجن به معى ولا أفارقه أبداً.

فلما نزل الركب بُصرى[1] من أرض الشام، حطّ تجار قريش رحالهم بالقرب من صومعة راهب اسمه (بحيرا)، اعتادوا أن ينزلوا بجواره كلما أتوا بُصرى.

واستضاف بحيرا رجال قريش على غير عادةٍ منه، فلما فرغ التجار من طعامهم وتفرقوا هنا وهناك..أقبل الراهب بحيرا على مُحمدّ يحاوره ويقول له:

يا غلام أسألك باللّات والعُزّى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه.

فقال مُحمد: لا تسألنى باللّات والعُزّى، فوالله ما أبغضت شيئًا قط بُغْضهما.

فقال بحيرا: فبالله ما أخبرتنى عما أسألك عنه. فاستجاب له مَحمّد وقال: سَلنى عما بدا لك.

فسأل الراهب بحيرا مُحمّداً عما أراد أن يسأله عنه، واستفهمه عن بعض عاداته وطباعه، وكان مَحمّد يجيبه عن كل ما يسأل عنه، ويستفهم منه.

وبينما كان الراهب بحيرا يسأل والغلام مُحمّد يجيب أقبل عليهما أبو طالب، فسأل بحيرا أبا طالب:

ما هذا الغلام منك؟ فقال: هو ابنى.

---

(١) بُصرى: هى مدينة حوارن، وقد فتحها المسلمون صُلحا سنة ١٣هـ، وهى أول مدينة فُتحت فى الشام.

قال بحيرا منكراً: ما هو بابنك، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا، ودهُش أبو طالب لما يعلمه بحيرا من أمر مُحمّد وقال: فإنه ابن أخى. قال بحيرا: وأبوه؟

قال أبو طالب: مات وهو جنين فى بطن أمه.

قال بحيرا: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى دياره، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنَّ به شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأنٌ عظيم.

وهكذا قضى مَحمّد اليتيم فى كفالة عمه أبى طالب سِنىّ صباه وسنى شبابه لا كما يقضيها الأطفال والشباب لعبًا ولهواً وعبثًا، بل قضاها رزينا رزانة الرجال، عفيفًا عفة الشرفاء، مفكراً بعقل الشيوخ، تسبح نفسه سبحات الدارس المتأمل فى كل ما يمر بها، ويرعى روحه فى مدار الكون الواسع الفسيح!

وظل أبو طالب يرعى مُحمّد صبيًا، ويلحظه شابًا، ويحرص على ألا يُعرّضه لما يمكن أن يُلحق به ضرراً، أو يناله منه أذى، وهو يتمثل قول الراهب بحيرا له: احذر عليه يهود!!

ولكن هذه العناية من جانب أبى طالب لابن أخيه، وحرص أبى طالب على ألا يفترق مُحمّدُ عنه، وأن يظل دائمًا بالقرب منه، لم يكن من الممكن ـ مع ضروريات العيش ومطالب الحياة الكثيرة فى بلد مثل مكة أن تُستمر طويلاً، فلا بد إذن أن يكون لُمحمّد نصيب فيما يشتغل فيه قومه سعيًا وراء رزقه ومعاونة لعمه، وحسب العم ما يحمل من أعباء بنيه الكثار.

ولكن إلى أين؟

إلى الشام مؤقتًا كما أراد له عمه فى صباح يومه ذاك، فلقد حدثه فى مطلع شمس هذا اليوم عن رحلة مرجوّة بالخير، كان مُحمّد إذ ذاك قد بلغ خمسًا وعشرين سنة، وقد تم له رُشْد الشيوخ، وتجربة الحُكمَاء، ورويّة العُقَلاء.

وهذا ما دعا عمه أبا طالب أن يقول له: (يا ابن أخى أنا رجل لا مال لى، وقد اشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنون منكرة، وليس لنا مال ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون فى مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها لفضّلتك على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك وأمانتك، وإن كنت أكره أن تأتى الشام وأخاف عليك يهود، وقد بلغنى أن خديجة استأجرت رجلاً ببكرين، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته، فهل لك فى أن أكلمها.

فكان جواب مُحمّد: ما أحببت يا عمى.

[٣] سار أبو طالب إلى خديجة بنت خويلد وقال لها: هل لك يا خديجة أن تستأجرى مُحمّداً ابن أخى؟

فأجابت من فورها: لو سألت ذلك يا أبا طالب لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألته للقريب الأمين؟!، وسُرّت بذلك سروراً كبيراً وقالت: ما علمت أنه يريد ذلك.

وأرسلت خديجة إلى مُحمّد تستدعيه للخروج فى تجارتها وقالت له: دعانى إلى أن أبعث إليك ما بلغنى من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وسأعطيك ضعف ما أعطى رجلاً آخر من قومك.

فأخبر مُحمّد عمه أبا طالب بحديثها فقال له عمه: يا مُحمّد هذا رزق ساقه الله إليك. وهكذا هيأت الأقدار لمُحمّد أن يخرج فى تجارة خديجة!!

وتهيأت عير قريش للخروج إلى الشام ومعهم الصادق الأمين مُحمّد فى تجارة خديجة ومعه غلامها (ميسرة).

حتى أتت القافلة بُصرى فباع أهل القافلة واشتروا وقايضوا واستبدلوا، وراجت تجارة خديجة رواجًا غير مسبوق فربحت تجارتها على يد مُحمّد ضعف ما كانت تربح، وسُرّ ميسرة بما رأى من رواج التجارة، فقد كان وفيًا لسيدته مُعجبًا بفضلها.

وساعد الربح الوفير على العودة بقدر من البضاعة لم يخطر لها على بال.

وقد شاهد ميسرة فى سفره عجبًا، فقد رأى غمامة تظلل الأمين مُحمّد منذ غادر مكة إلى عودته فتقيه حَرّ الشمس، وأنه خَلاً بنفسه يفكر، فجلس تحت شجرة عظيمة الساق، كثيرة الفروع، وارفة الظلال، وإذا براهب يُدعى «نسطور» كان يعرف ميسرة من قبل، يُقدم عليه ويسأله: من يصحبك يا ميسرة؟!

أجاب: شاب من قريش.

فقال نسطور: ما الذى تعرف من صفته؟

أجاب: الأمانة، والنزاهة، وكرم الخُلقُ، وجلوسه الساعات الطوال يفكر.

فسأله: وما شكل عينيه؟

أجاب ميسرة: واسع العينين أدعجهما[1]، تشوب بياضهما من الجوانب حُمرْة خفيفة، تزيد فى قوة جاذبيتهما وذكاء نظرتهما أهداب طوال، سود حوالك.

فقال نسطور وهو يشير إلى حيث مُحمّد: يا ميسرة إن من يجلس بجوار هذه الشجرة، وتظله هذه الغمامة المنخفضة ليس إلا نبيًا، فازداد ميسرة بالصادق الأمين إعجابًا فوق إعجاب!

ثم قال الراهب: يا مُحمّد قد عرفت فيك العلامات كلها خلا خصلة واحدة فاكشف لى عن كتفك، فإذا هو بخاتم النبوة يتلألأ بين كتفيه، فأقبل عليه يُقبّله، فظن القوم أن الراهب يريد بمُحمّد شراً، فاستلّ بعضهم سيفه وصاح: يا آل غالب، يا آل غالب، فأقبل الناس يهرعون إليه من كل ناحية.

وقالوا: ما الذى راعك؟

فلما رأى الراهب ذلك دخل صومعته وأغلق بابها، ثم أشرف عليهم وفى يده صحيفة.

---

(١) (دعجت) العين ـ دعجًا ودُعْجَةً: اشتد سواد سوادها وبياض بياضها واتسعت فهى دَعْجَاءُ.

ثم قال: يا قوم ما الذى راعكم منى؟ فوالذى رفع السموات بغير عمَد إنى لأجد فى هذه الصحيفة أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العالمين، يبعثه الله بالسيف المسلول وبالربح الأكبر، وهو خاتم النبيين فمن أطاعه نجا، ومن عصاه فقد غوى.

وانفض القوم غير مكترثين بقول الراهب نسطور.

وبينما تسير القافلة إلى مكة فى طريق عودتها، يصيب الكلل[1] بعيرين من الإبل التى يتعهدها ميسرة، ويحاول عبثا أن يحملهما على مسايرة الركب بلا جدوى، فيرفع أمرهما إلى مُحمّد، الذى مسح بيده على أخفافهما، ثم أمسك بمقودهما وقادهما، فسارا خفافًا فى نشاط ظاهر، كأن لم يكن بهما شىء. فازداد ميسرة بمُحمّد إعجابًا على إعجاب.

فلما كانت القافلة (بمرّ الظهران)[2] اقترح ميسرة على الأمين مُحمّد أن يسبق القافلة إلى مكة ليبشر سيدته بالربح الوفير الذى جاءها على يدى الأمين مُحمّد.

ولما وصل ميسرة إلى سيدته خديجة، قصّ عليها ما رأى وما سمع.

ثم علا ضجيج الركب مختلطًا بهتاف المستقبلين ورغاء[3] الإبل التى أناخت على ثرى مكة مطمئنة، فمضى مُحمّد على بعيرة قاصداً دار خديجة بعد أن طاف بالبيت العتيق.

وكانت خديجة هناك فى دارها، ترقب الطريق مع بعض صويحباتها من علّيةٍ بمنزلها، وبينما كانت تدير الطرف فى الفضاء، لمحت من بعيد راكبًا يعدو نحو مكة تظللّه غمامة، وما زالت تملأ أذنيها بحديث غلامها المثير ميسرة عن رحلته مع مُحمّد حتى ظهر لها أخيراً وهو يدنو بطلعته البهية، وملامحه النبيلة.. فلما وصل إلى الدار اندفعت لتستقبله لدى الباب مرحِّبة، مهنِّئة بسلامة العودة فى صوت يفيض عذوبة ورقة وحنانا.

---

(١) الكلل: التعب.

(٢) بلدة قريبة من مكة.

(٣) رغا البعَير: صوّت وضجَّ.

ورفع إليها الأمين مُحمّد وجهه شاكراً، فما تلاقت الأعين حتى عاد فخفض بصره، ومضى يقص عليها أنباء رحلته وتجارته وما جاءها به من طيبات الشام، وأنصتت إليه شبه مأخوذة، حتى إذا ودعها ومضى، ظلت واقفة حيث هى، تتبعه عيناها إلى أن توارى فى منعطف الطريق، واتجه هو إلى منزل عمه أبى طالب وهو يحس شيئًا من الرضى والارتياح، أنه عاد من رحلته موفقًا سالمًا لم يمسسه أذىً من يهود.

قالت خديجة لنفسها:

نِعْمَ الشاب مُحمّد بن عبد الله، أمين، صادق، كامل الرجولة، أين فى العربَ مثل مُحمّد؟

وحارت فى أمرها كيف تواجه دنياها بمثل هذه العاطفة بعد أن نفضت يديها من الرجال، أو خرجت فى حساب بيئتها من حياة الرجال؟!

وكيف تلقى به قومها وقد ردّت عن بابها الخُطّاب من سادة قريش وسُراة مكة؟

وفى غمرة حيرتها واضطرابها زارتها صديقتها (نفيسة بنت منّبه)[1] فلم يغب عنها الذى تجده صاحبتها، وسرعان ما كشفت لها عن سرِّها المطوى.

وهوّنت نفيسة الأمر عليها، فما فى نساء قريش من تفوقها نسبًا وشرفًا، وهى بعد ذات غنى وجمال، وكل قومها حريصين على الزواج منها لو يقدر عليه.

وأشارت عليها أختها هالة بأن تبعث إلى مُحمّد بمن يستطلع رأيه، ويختبر شعوره. وعلى الفور هبّت نفيسة بنت منبه إلى مُحمّد تتعرف رأيه، وتستطلع خبره، وتستدرجه لهذه الغاية.

---

(١) هى نفيسة بنت أمية التميمية أخت يعلى بن أمية وتسمى أيضًا نفيسة بنت منية ومنية أمها.

فذهبت السيدة نفيسة إلى بيوت بنى هاشم تنشده، حتى إذا رأته فى أحد بيوت عماته انتهزت خلوة به، فسألته فى ترفق وإغراء فيم عزوفه عن الدنيا، وقضاؤه على شبابه بالحرمان.. هلا سكن إلى زوجة تحنو عليه وتؤنسه، وتزيل وحشته؟

أجاب محمد: ما بيدى ما أتزوج به.

قالت نفيسة: فإن كُفيت ذلك، ودُعيت إلى المال والجمال والشرف ألا تجيب؟

فقال مُحمّد: فمن هى؟

قالت: خديجة. قال: بنت خويلد. قالت: نعم.

فقال فى ابتهاج: وكيف لى بذلك؟

قالت نفيسة: عَلىّ ذلك. فقال مُحمّد: وأنا قد رضيت.

وتلتقى به إحدى الكاهنات وهو يسير بالقرب من منزل السيدة خديجة فتفاجئه سائلة: جئت خاطبًا يا مُحمّد؟

فأجابها صادقًا: كلا.

قالت: ولِمَ، فوالله ما فى قريش امرأة، وإن كانت خديجة إلا تراك كُفئا لها.

وجاء رسول خديجة إلى مُحمّد يستدعيه، فلما حضر تكلما معا فى أمر الزواج، فقال لها مُحمّد: من لى بك وأنت أيّم[1] قريش، وأنا يتيم قريش.

فأجابت: يا ابن العم إنى قد رغبت فيك لقرابتك، وأمانتك، وحُسنْ خلقك، وصِدْق حديثك.

ثم قالت: بأبى أنت وأمى..!! وإنى لأرجو أن تكون أنت النبى الذى سيُبعث، فإن تكن هو فاعرف حقى، وادع الإله الذى سيبعثُك لى.

---

(١) الأيّم: الأرملة التى فقدت زوجها.

فقال مُحمّد: والله لقد اصطنعت عندى ما لا أضيعه أبداً، وإن الإله الذى تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً.

وذهب مُحمّد إلى عمه أبى طالب وأنبأه بما كان من حديث خديجة، فتعجب أبو طالب وقال:

عجبا يا بنى أن ترد خديجة، سيدة نساء قريش، ذوى المال والجاه ثم ترتضيك أنت بعلا [1]لها.

ثم استدرك قائلا: ولكنك يا بنى إن افتقرت إلى المال، فأنت غنى فى الشرف، والمحتد، والنسب.

فقال مُحمّد: يا عمى، إننى لاطمع لى فى مال، ولا حاجة بى إليه.

وذهب أبو طالب مع إخوته أعمام محمد فى رهط من بنى هاشم يخطبونه خديجة من عمها (عمرو بن أسد) وأخيها (عمرو بن خويلد) لمُحمّد، فرحبا بالخطبة أيما ترحيب.

وحُدد يوم الزواج، وجاء إلى دار العروس مُحمّد وأعمامه فى رهط من بنى هاشم، ورهط من ذوى قُرباها، لتوثيق العقد بالإيجاب والقبول، وتكلم أبو طالب فى الحفل فقال: الحمد للّه الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وأصل مَعَدّ وعنصر مُضَر، وجعلنا سدنة[2] بيته، وسّواس[3] حرمه.

أما ابن أخى مُحمّد فلا يوزن به رجل إلا رجحه شرفًا، ونُبلا، وفضلا، وعقلا، وإن كان فى المال قُلاً، فإن المال ظلّ زائل، وأمر حائل، وعارية مُسترجعة.

ثم ذكر أبو طالب رغبة مُحمّد فى الزواج من خديجة، ورغبة خديجة فى الزواج منه، وقرر مقدار الصداق الذى أمهره مُحمّد ومقداره عشرون ناقة.

---

(١) بعلا: زوجًا.

(٢) السادن: خادم الكعبة. (ج) سَدَنَة.

(٣)(ساس) الناس - سياسة تولى رياستهم وقيادتهم.

وأعقبه عم خديجة عمرو بن أسد، فأثنى على مُحمّد، وأعلن قبول الزواج على الصَدَاق المعروض.

ونُحرت يومئذ الذبائح، وأطعموا منها الوافدين والوافدات. وكانت حليمة السعدية - أم الأمين مُحمّد من الرضاع - بينهن، وقد عادت بعد الحفل إلى بادية بنى سعد وبين يديها أربعون رأسا من الغنم هدية من العروس الكريمة لتلك التى أرضعت زوجها الحبيب.

وزُفَّت سيدة نساء قريش إلى زوجها أمين قريش، وسَعد الزوجان بالمودة والرحمة التى قامت بينهما واستقرت، فعرفت فيه خديجة زَوجا كاملا أكمل ما يكون الزوج، كما عرفته من قبل أمينا أكمل ما يكون الأمين.

ووجد مُحمّد فى ظل هذه الزوجة البّرة كل ما ينشده الرجل من أمن واستقرار وتفرغ لما يستقبله فى حياته من عظائم الأمور وجلائل الأعمال.

ورزق الله الزوجين الكريمين البنين والبنات، فكان لهما من البنين، القاسم، وبه كان يُكنّى، وعبد الله (ويلقب بالطاهر والطيب)، ومن البنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، عليهم رضوان الله جميعًا، وقد فقد الزوجان ولديهما الحبيبين فى طفولتهما ،فاحتسباهما عند الله (القاسم ثم عبد الله) وبقيت لهما بناتهما الأربع يملأن حياتهن بالغبطة والسرور.

وفى ذات يوم كانت السيدة خديجة فى زيارة لابن أخيها (حكيم بن حزام) فلما عادت إلى دارها كان يصحبها غلام وضىء، تبدو عليه آثار النعمة والرفاهية، فسألها مُحمّد: من يكون هذا الغلام يا خديجة؟

قالت: وهبنى إياه ابن أخى حكيم بن حزام بن خويلد من رقيق أتى به معه من الشام.

قال مُحمّد: واللّه إنى لأجد فى وجهه عنصر الكرم، وأرى فى ملامحه مخايل الذكاء.

وسأل مُحمّد الغلام وهو يتأمل وجهه فى عطف وحنان:ما اسمك يا بنى؟

قال الفتى: زيد بن حارثة.

فقال مُحمّد لزوجته: يا خديجة، ألا وهبتنى إياه؟!

قال خديجة: هو لك يا ابن العم.

فاعتق مُحمّد الغلام فى الحال وتبنّاه، وأذاع فى الملأ من قريش أنه ابنه وارثا وموروثا، فصار يُدعى زيد بن محمد، حتى جاء أمر الإسلام: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ﴾ فُدعى زيد بن حارثة، ومع ذلك ظل أثيراً عند المصطفى، مقرّبًا إليه، عزيزاً عليه.

وكانت هذه السنة سَنةً مُعّسرة مجدبة، أرهقت فقراءهم، ونالت منهم، ولما كان أبو طالب رجلا رقيق الحال، كثير العيال، فقال مُحمّد لعمه العباس - أغنى بنى عبد المطلب -: «إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى، فانطلق بنا فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلا، وتأخذ أنت رجلا، فنكلهما عنه».

وعلى ذلك كفل العباس من أولاد أبى طالب جعفرًا، وكفل مُحمّد عليّا.

وصار مُحمّد لعلى أكرم أب، وصار علىّ لُمحمّد أبرّ ولد! وصارت خديجة لزيد وعلىّ - اللذين جعلهما مُحمّد بمثابة أولاد له - أحنى أم، تعمل على رعاية أولادها، وتحرص على راحة زوجها.

مرّت خمسة عشر عاما على زواج خديجة من مُحمّد دامت فيها مظاهر المودة والمحبة بين الزوجين الحبيبين، ومن مظاهرها أن الزوجة الكاملة خديجة تركت لزوجها حرية التعبّد كما يشاء، فكان مُحمّد يذهب إلى غار حراء ويخلو فيه متفكراً فى صنع الله الذى أتقن كل شىء، ومنكراً على قومه عبادة الأصنام التى تكدست حول الكعبة، وكان كفار مكة يتذرعون فى عبادتهم لها بما وجدوا عليه آباءهم، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون.

وأحاطت الزوجة الكاملة خديجة زوجها الحبيب مُحمّد بالعطف فى مسلكه هذا، فلم تعترض على خلوته بعيداً عن داره طوال شهر رمضان الذى كان

يختار أيامه للخلوة، بل كانت على العكس ترسل وراءه من يحرسه ويرعاه، وتذهب بنفسها إلى الغار ليطمئن قلبها عليه فى خلوته بعيداً عن مجتمعه الذى يعبد الأصنام من دون الله، أما هو فقد آثر الله، وهجر أهله وذهب إلى الله يأنس به، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾. (النور : ٤٠)

وهكذا بدا كأن كل شىء مهيأ لاستقبال الرسالة المرتقبة.

وحين أذن الله وجاءه جبريل بالوحى فى غار حراء أول مرة، انطلق مُحمّد إلى زوجه الحبيبة خائفا يرجف فؤاده، وقصّ عليها ما رأى وما سمع، يلتمس عندها الطمأنينة، وأسرع فوضع رأسه على صدر خديجة وهو يقول: زملونّى.. زملونّى[١].

فأسرعت خديجة فزمّلته ودثّرته[٢]، وهى تضمه إلى صدرها مُشفقة أن يكون قد أصابه مرض، أو نزلت به حُمّى، فلما هدأ قليلا، وسكن عنه بعض الروع، سألت خديجة زوجها الحبيب بلهفة وجزع:

ما بك يا مُحمّد؟ وأين كنت؟!

فنظر مُحمّد إلى زوجته نظرة المستغيث المستنجد وقال:

يا خديجة! ما الذى بى؟ كنت بغار حراء، فإذا بمَلَك جميل الصورة قد تبدّى لى وبيده صحيفة من ديباج[٣]، وسمعته يخاطبنى: اقرأ، فقلت: ما أقرأ، فأحسست أن الملك يخنقنى، ويضغطنى ضغطا شديداً حتى حسبت أنه الموت، ثم أرسلنى وقال لى: اقرأ.

فقلت: ما أقرأ.

فأحسست مرة أخرى أن الملَك يخنقنى ويضغطنى ضغطا أشد، ثم أرسلنى وقال لى: اقرأ.

وخشيت أن يعود معى بمثل ما صنع بى فقلت: ماذا أقرأ؟

---

(١) زمّله بثوبه: لفّه فيه.

(٢) دثر فلانا: غطّاه.

(٣) الديباج: ضرب من الثياب سُداه ولُحَمته من الحرير.

قال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾[1].

فقرأت ما قاله الملَك، وقد نُقش فى قلبى، وطُبع على صفحة فؤادى، فتركنى الملَك وانصرف.

وهببت قائما وقد تولانى الجزع، وتملكنى الفزع، فأخذت التفت فى أرجاء الغار فزعا ورُعبا، أسائل نفسى من الذى خاطبنى، من الذى أقرأنى؟

وغادرت الغار مسرعا، وقد خشيت أن يكون قد لحقنى مسّ من الجن، وأصابنى ما كنت أخاف وأخشى.

وهِمتُ بين شعاب الجبل وأنا أتساءل: من هذا الشخص الذى تمثّل لى، ومن الذى عنى بما أقرأنى؟

وبينما أنا بوسط الجبل سمعت صوتا ينادينى «مُحمّد» ورفعت رأسى فرأيت أمامى الملَك وقد تمثّل فى صورة رجل ينادينى: يا مُحمّد أنت رسول الله وأنا جبريل. فزاد رُعبى واشتد علىّ الفزع، ووقفنى الهلع، فلم أجد لنفسى مهربا، فجعلت أدير نفسى يمنة ويسرة، أحاول أن أصرف عن ناظرى صورة هذا الشخص الذى أمامى، ولكننى كنت أراه أينما وليت وجهى وحيثما حوّلته.

عالجت أن أتقدم أو أتأخر، فإذا بى أرى صورة هذا الشخص تتراءى أينما وجهّت وجهى، وحيث أرسل بصرى فى آفاق السماء.

استمعت خديجة إلى مُحمّد، وهو يقص عليها حديثه، ويفضى إليها بمخاوفه، ولكن خديجة الزوجة الكاملة نظرت إلى زوجها نظرة إجلال وإكبار، وابتسمت فى وجهه ابتسامة المطمئن الواثق، وقالت فى ثقة ويقين: (الله يرعانا يا أبا القاسم، أبشر يا ابن عم فوالذى نفس خديجة بيده، إنى لأرجو أن

---

(١) العلق: ١ ـ ٥.

تكون نبى هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبداً.. إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ[١]، وتقرى الضيف[٢]، وتعين على نوائب الحق).

ونزل كلام خديجة على نفس مُحمّد الجزعة برداً وسلامًا وحملت ثقتها إليه الهدوء والاطمئنان، وأشاعت فى روحه الراحة والاستبشار، فشكر لها حُسن حديثها، وطيب منطقها، ثم أغمض عينيه ونام مطمئنا مستبشراً.

وفكَرت خديجة فيما حدّثها به مُحمّد، فاستبشرت خيراً، ولكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الخوف على مُحمّد والخشية من أن يصيبه أذى، فرأت أن تستشير فى ذلك ابن عمها ورقة ابن نوفل لما تعرف من علمه وحكمته.

فاسرعت إلى ملابسها وارتدتها، وذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وقصّت عليه الخبر كله، فصاح مُهللا:

قدوس[٣]، قدوس، والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى مُوسَى، وإنه لنبى هذه الأمة، فقولى له: فليثبت.

وعادت خديجة إلى دارها مسرعةً لتبشر مُحمّداً، وتخبره بما قاله ورقة بن نوفل، فوجدته لم يزل نائمًا، فجلست قريبًا منه تنظر إليه فى إشفاق.

لكنها رأته يرتجف، وقد تفصّد جبينه بالعَرق[٤]، ونَالَ منه الجَهْد وهو يقرأ عن ظهر قلب:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧ ﴾[٥].

---

(١) الكلُّ: من لا ولد له ولا والد و-: من يكون عبئًا على غيره.
(٢) قرَى الضيف: قرى: أضافه وأكرمه.
(٣) قدوس: اسم من أسماء الله تعالى.
(٤) أى سال عرق جبينه.
(٥) المدثر: ١ ـ ٧.

وتلقته خديجة من صحوه بين ذراعيها، وما كادت تبشره بما سمعته من ابن عمها ورقة بن نوفل، حتى نظر إليها مليًا نظرةً تفيض شكراً وامتنانًا، ثم استدار ونظر إلى الفراش وقال متأثراً:

«انتهى عهد النوم يٰا خديجة، فقد أمرنى جبريل أن أُنذر الناس، وأن أدعوهم إلى الله وعبادته، فمن ذا أدعو ومن ذا يستجيب؟ فهتفت من فورها فى لهفة وحماس:

أنا استجيب للّه يا مُحمّد، فادعنى قبل أن تدعو أى إنسان وإنى لمسلمة لك، مصدقة برسالتك، مؤمنة بربك.

فكانت رضى الله عنها أول المؤمنات من النساء، كما كان (أبو بكر) أول من آمن من الرجال، وكان (علىّ) أول من آمن من الأحداث الذين لم يبلغوا الُحلمُ. وكان (زيد بن حارثة) أول من آمن من الموالى.

ثم استجاب النبى ﷺ، لأُمنا الكبرى خديجة رضى الله عنها، وقام ينشد ورقة، فلم يكد يراه حتى صاح:

(والذى نفسى بيده، إنك لنبى هذه الأمة، ولتكذَّبن، ولتؤذين، ولتخرجن، ولتقاتلن، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه).

ثم أدنى رأسه إليه وقبّله.

فقال له النبى ﷺ: «أو مخرجى هم؟» (يعنى قومه).

قال ورقة: نعم! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، ليتنى أكون فيها جَذَعا[1]، ليتنى أكون حيًا حين يُخرجك قومك؟، ولئن أدركنى يومك لأنصرنك نصراً مؤذراً.

وَأخذ رسول الله فى نشر دعوته، ولكنه مضى فيها غير عابى، بما يلقاه فى سبيلها من أذى، ولا عجب فهو كبير أولى العزم من الرسل الذين صبروا على الشدائد فى تبليغ رسالاتهم ليخُرجوا الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم.

---

(١) الجذَع: من الرجال: الشابُ الحَدَث.

ووقفت الزوجة المؤمنة إلى جانب زوجها المصطفى تنصره وتشد أزره، وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد سنين عدداً.

وأعلنت قريش على بنى هاشم وبنى عبد المطلب وهم قومه حربًا مضنية لا ترحم اضطرتهم فيها قريش أن يخرجوا من مكة لائذين بشعب أبى طالب فى أطراف مكة حيث أُحصروا فيه، وسجلت قريش مقاطعتها لهم فى صحيفة عُلِّقت فى جوف الكعبة تتضمن أن لا يبيعوهم أو يشتروا منهم شيئًا أو يتزوجوا منهم.

ولم تتردد خديجة عن الخروج مع زوجها الكريم إلى شِعب أبى طالب، فتركت دارها الحبيبة التى عاشت فيها سنين عدداً.

بل قامت تتبع رجلها ونبيّها وقد علت بها السن، وناءت بأحمال الشيخوخة والثكل والاضطهاد، تذوق مع الرسول وقومه أهوال الحصار الجائر، وتكافح الوهن الذى أخذ يدب إلى جسدها منذ جاوزت الستين متشبثة بالحياة فى نضال رائع كيما تظل إلى جانب بطلها فى معركته الفذّة، التى يلقى فيها بقلة مؤمنة عزلاء جبروت الوثنية العريقة المتأصلة، وجموع القرشيين ذوى العدد والعدة والمال.

ولكن إذا لم يكن الوفاء من السيدة خديجة فمن يكون؟!

وهى التى آزرت زوجها فى حياته مؤازرة الصدق والإخلاص، تلك المؤازرة التى ظل يذكرها النبى ﷺ فى كل مناسبة، ولا ينساها أبداً.

ودام ذلك الحصار ثلاث سنوات، ولكنه فشل أمام الصبر الجميل، كما فشل من قبله إغراء الكفار حين قالوا لأبى طالب: إن ابن أخيك عاب ديننا وسفّه أحلامنا، إن كان ابن أخيك طالبٌ مُلك ملّكناه، وإن كان طالب مال جمعنا له، وإن كان مريضًا طبّبناه. فلما رجع أبو طالب وعرض على مُحمّد ما عرضوه قال قولته المشهورة: «والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُظهره الله أو أهلك دونه».

فشل الحصار آخر الأمر أمام الصبر، وآب الزوجان إلى دارهما الحبيبة فى مكة المكرمة، ولكن الزوجة الوفية أجهدها الإعياء فلم تعش بعد فك الحصار أكثر من ثلاثة أيام حتى أسلمت روحها الزكية إلى خالقها راضية مرضية، بين يدى الرجل الذى أحبته وصدّقته وآمنت به، وكان النبى ﷺ يهون عليها سكرات الموت ويبشرها بما أعده الله لها من نعيم، وحولها بناتها يحطن بفراشها، ويودعنها قبل الرحيل.

وفى اليوم العاشر من رمضان سنة عشر من المبعث حُملت سيدة نساء قريش وأم المؤمنين الكبرى إلى أرض الحجون حيث أضجعها الرسول ﷺ بيديه الكريمتين فى قبرها، ثم ودعها وآب إلى بيته محزونًا وصابراً على البلاء المبين.

وبلغت متاعب النبى ﷺ من المشركين أقصى مداها فى عام موت عمه أبى طالب وكان له أباوصديقًا وكافلا وحاميًا ومانعًا له من طواغيت قومه قريش ثم تلته بعد ثلاث ليال، زوجه خديجة وكانت له وزير صدق على الإسلام، ولهذا سُمى هذا العام (عام الحُزْن).

وخُيل إلى أعدائه المشركين أن الظلمات تكاثفت حوله، وما دروا أن الظلمة تبلغ ذروتها قُبيل الفجر.

فلم تكد تمضى خديجة، وأمين الوحى جبريل يرعى الرسول غاديا رائحا يذود عنه اليأس والإعياء، والسابقون الأولون من المؤمنين يفتدونه بالمُهج والأرواح، ويرون الاستشهاد فى سبيل دعوته مجداً وانتصاراً.

لم تمت السيدة خديجة إلا والدعوة قد ذاعت وجاوزت مكة إلى أطراف الحجاز وحملها المهاجرون إلى الحبشة.

وفى الموسم نفسه رجال من يثرب يفدون إلى مكة ثم لم يلبثوا أن بايعوا النبى ﷺ، ويعودوا فيبعثوا المدينة كلها لنصرته.

وكانت أم المؤمنين رضى الله عنها تواًقه لأن ترى الدعوة الإسلامية ناجحة كل النجاح، فقد قالت لابنتها أم كلثوم قبل أن تلفظ أنفاسها: ليت الأجل يمهلنى حتى تنجلى المحنة، فأموت قريرة العين راضية.

فأجابتها أم كلثوم: لا بأس عليك يا أماه.. ثم خانها الجلد وخنقتها العبرات، فاستطردت تقول: (أى وربى لا بأس علىّ يا ابنتى، فما من امرأة من قريش ذاقت ما ذقت من نعيم، بل ما من امرأة فى هذه الدنيا نالت مثل الذى نلت من مجد، حسبى من دنياى أنى زوجة الحبيب المصطفى، وحسبى من آخرتى أننى المؤمنة الأولى، وأنى أم المؤمنين). ثم أسبلت عينيها وهمست: (اللهم إنى لا أحصى ثناءً عليك، اللهم إنى لا أكره لقاءك ولكنى أطمع فى المزيد من التضحية لأكون جديرة بما أنعمت علىّ) ثم فاضت روحها إلى بارئها. وتركت الراحلة من بعدها، بناتها الأربع، ملء حياة أبيهن الرسول ﷺ، وملء التاريخ الإسلامى.

وبرغم موت خديجة فإن مُحمّد ﷺ ظل يذكرها ولا ينساها أبداً.

أتت هالة بنت خويلد يومًا إلى دار مُحمّد بالمدينة، فسمع مُحمّد صوتها من داخل الدار، يذكِّره بصوت الراحلة خديجة فهتف مأخوذاً:

«اللهم هالة».

وكان مُحمّد إذا أتى بالشىء، أو ربما ذبح الشاة يقول:

«أرسلوا إلى أصدقاء خديجة، فإنى أحب حبيباتها».

كان يحب ابنته رُقّية حبًا شديداً، لأنها كثيرة الشبه بأمها خديجة فلما ماتت رُقَية بكى، وأحس حزنًا شديداً، وشعر وهو يدفنها، بطيف الراحلة العزيزة، زوجته الوفية خديجة.

وكان لا يخرج من البيت، حتى يذكر خديجة ويُثنى عليها، ويدعو لها، حتى أحست زوجته عائشة (رضى الله عنها) ببعض الغيرة لهذه العناية بخديجة، فلما ذكرها أمامها ذات يوم، قالت باسمة:

- هل كانت إلا عجوزاً أبدلك الله خيراً منها؟

فغضب مُحمّد ﷺ من قول عائشة غضبًا شديداً، وقال لها:

«لا والله! ما أبدلنى الله خيراً منها. آمنت بى إذ كفر الناس، وصدقتنى إذ كذّبنى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء».

كما يروى عن السيدة عائشة، قالت: دخلت امرأة سوداء على النبى ﷺ فأقبل عليها، قالت: فقلت: يا رسول الله: أقبلت على هذه السوداء هذا الإقبال! فقال: «أنها كانت تدخل على خديجة وإن حُسّن العهد من الإيمان»[1].

وأيضًا بعد فتح مكة، جاءت إلى النبى ﷺ نفيسة بنت منيه وقد أسلمت، تذكرّه بما كان منها فى زواجه ﷺ من السيدة خديجة فبرّها وأكرمها.

وكان كل نصر يذكّره بخديجة التى كانت تفرح له، وكل هزيمة تُذكره بخديجة التى كانت تواسيه.

كان إذا غنم تذكر خديجة، وودّ لو كانت حاضرة فيعطيها ويرد لها بعضًا من جميلها.

وفّى لها الرسول كما وفت لله ورسوله وبادلها وفاءً بوفاء حتى لحق بالرفيق الأعلى.

لقد كانت أم المؤمنين والمؤمنات خديجة رضى الله عنها، مثلا للبّر، والحنان، والإخلاص، وحُبّ الله، وحُبّ رسول الله.

ويروى عن أبى هريرة رضى الله قال، قال رسول الله ﷺ: «خير نساء العالمين أربع: مريم ابنة عمران، وابنة مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد»[2].

وروى شعبه بن معاوية بن قرة بن أياس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كمُلَ من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران، وأسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد».

---

(١) فى المصنف وأخرج نحوه الحاكم فى المستدرك، انظر سير أعلام النبلاء ٢/١٦٥.

(٢) رواه الترمذى ٣٨٧٨، مسلم باب فضائل خديجة، الاستيعاب ٤/١٨٢٣.

وقال ابن عبد البر: روى من وجوه أن النبى ﷺ قال: « يا خديجة، جبريل يقرئك السلام، وفى بعضها: يا محمد، اقرأ على خديجة من ربها السلام».

ورُوى أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ، وطلب منه أن يقرأ على خديجة السلام من ربها ومنه، ويبشرها ببيت فى الجنة من قصب[1] لا صخب فيه[2] ولا نصب[3].

ويقول السهيلى: «وإنما يشّرها ببيت فى الجنة من قصب لأنها حازت قصب السبق إلى الإيمان، لا صخب فيه ولا نَصَب لأنها لم ترفع صوتها على النبى ﷺ ولم تتعُبه يومًا من الدهر، فلم تصخب عليه يومًا، ولا آذته أبداً».

لقد كانت «خديجة» ملء حياة الرسول حية وميتة، وما جاوزت عائشة الحق حين قالت لزوجها الرسول: «كأن لم يكن فى الدنيا امرأة سواها».

كلا.. بل هى وحدها، ولا امرأة سواها، التى أعدتها الأقدار لتملأ حياة الرجل الموعود بالنبوة، وتكون لليتيم أمًا، وللبطل مُلهمة، وللمناضل ملاذاً وسَكنًا، وللنبى المبعوث نبع ثقة وطمأنينة وسلام.

وتركت الراحلة من بعدها بناتها الأربع ملء حياة أبيهن الرسول ﷺ، وملء التاريخ الإسلامى.

ومنَّ الله عليها وعلى المسلمين بأن حفظ فى نسل الزهراء بنت الطاهرة، ذرية نبيه عليه الصلاة والسلام، قبسًا من سنًا نوره ونفحةً من عِطر شذاه، فهى أم آل بيت النبى ﷺ.

فالسلام على خديجة التى أقرأها ربها على لسان نبيه السلام،والسلام على خديجة التى أعد الله لها فى جنته قصراً من لؤلؤ وقصب. ثم السلام على خديجة أكمل النساء وخير نساء العالمين، وسيدة نساء أهل الجنة.

---

(١) لؤلؤ مجوّف.

(٢) الصخب ارتفاع الأصوات واختلاطها.

(٣) النصب: التعب.

السيدة سودة بنت زمعة العامرية
المهاجرة أرملة المهاجر رضى الله عنها

«.. والله ما بى على الأزواج من حِرْص، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجًا لك»

(.. من حديث سودة رضى الله عنها فى الإصابة)

ووهبت ليلتها لعائشة، لما رأت من حبه ﷺ لها، أرادت مرضاة رسول الله ﷺ رضى الله عنها وأرضاها.

[١] توفيت خديجة رضى الله عنها فى العام العاشر بعد البعثة وأوحش الدار من بعدها وخلا، إلا من طيف ذكراها الغالية التى لا تفارق زوجها الحبيب مُحمّد ﷺ وكلما ذكرها تذكر جهادها وعطفها وبرها، اشتد به الحزن حتى بدا أثره فى وجهه وجسمه.

وقد رأى المسلمون ما بدا عليه من آثار الحزن، فرأوا أن يخففوا حزنه، وفكروا فى أن يحببوه فى الزواج، فربما استطاعت امرأة أن تزيل ما به أو بعض ما به من حزن على خديجة.

وبعثوا إليه (خولة بنت حكيم السلمية)[١] لتحدثه فى هذا الأمر، فسعت إليه ذات مساء متلطفة مترفقة، تقول:

يا رسول الله! قد ازداد حزنك على خديجة، حتى بدا أثره على وجهك وجسمك، فهل من يصرف هذا الوجد عنك؟

قال الرسول وقد اغرورقت عيناه:

«ومن يصرف حزنى على خديجة؟!

أعانت رسول الله، وعاشت لله، وماتت فى سبيل الله، كانت ربّة الدار وأم العيال..!».

قالت خولة باسمة:

لعل فى النساء من تُرضى الله وتُرضى رسول الله، فتعوضك بعضًا من حنانها وعطفها، وما زالت تحاوره حتى رضى بالزواج.

فذكرت له خولة على الفور (عائشة بنت أبى بكر) أحبّ الناس إليه.

وتفتح قلبه ﷺ حين ذُكر صاحبه، فهو صاحب الغار. وأول المسلمين، ولم يستطع أن يقول لخولة: لا... تأبى عليه ذلك صحبة طويلة مخلصة، ومكانة لأبى بكر عنده ﷺ لم يظفر بها سواه.

---

(١) هى الصحابية الجليلة خولة بنت حكيم السلمية ـ الملقبة بذات الهجرتين، لأنها هاجرت مع زوجها عثمان بن مظعون إلى الحبشة ثم إلى المدينة.

«لكن عائشة ما تزال صغيرة يا خولة».

قالت خولة: تخطبها اليوم إلى أبيها ثم تنتظر حتى تنضج.

فهل جاءت خولة لتعرض زواجًا آجلا لن يتم قبل سنتين أو ثلاث؟ ومن للبيت يرعى شئونه، ومن لبنات الرسول ﷺ يخدمهن؟

بل جاءت وفى خاطرها اثنتان، إحداهما بِكرْ وهى «عائشة بنت أبى بكر» والأخرى ثيِّب هى (سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس ابن عبدود بن نصر بن مالك القرشية العامرية. وأمها الشموس بنت قيس بن زيد من بنى عامر بن غنم النجارى الأنصارى. لقد جمعت بين شرف قريش وشرف الأنصار.

وكانت سودة من السابقات إلى الإسلام هى وزوجها السكران بن عمرو ابن عبد شمس أخو سُهيل بن عمرو وكانا من المهاجرين إلى الحبشة فى الهجرة الأولى وعادا إلى مكة.

قال بعض الرواة: إن السكران مات بالحبشة فى هجرته، وعادت سودة وحدها بدونه إلى مكة. وقال بعضهم: بل عادا معا، ومات هو بمكة قبل الهجرة إلى المدينة.

لهذا لما فاتحته خولة أَذن لها ﷺ فى خطبتهما، فمرت أولاً ببيت (أبى بكر) ثم جاءت بيت (زمعة) فدخلت على ابنته (سودة) تقول:

ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة يا سودة؟

فاستعجبت سودة من قول خولة وسألتها مستفسرة: وما ذاك؟

قالت خولة: أرسلنى رسول الله لأخطبك عليه.

وجاهدت «سودة» لتملك نفسها من فرط العجب والدهشة، كأنها لا تصدق ما سمعته بأذنيها..!!

أتتزوج سودة رسول الله، وتحل محل خديجة سيدة نساء قريش..!!

إن سودة لم يكن لها بعد وفاة زوجها عنها أرب فى زواج، فهى امرأة

خالية من الجمال، جاوزت سن الشباب، قد زاد وزنها، وثقل جسمها، فمن لها برسول الله الذى تتمنى شرف الزواج منه الكثيرات من فتيات قريش المسلمات ذوات الحسب والنسب والشباب والجمال..؟!!

ولكن هل ترفض سودة الشرف الذى يوليه إياها الرسول، بإرساله إليها من يخطبها عليه..؟!

كلا، فما ينبغى لمثل سودة المؤمنة المجاهدة، وقد ترملت، أن ترفض هذا الشرف، ولن تضن على نفسها أن تكون قرينة لرسول الله.. لقد اهتز قلبها فرحًا لهذا النبأ العظيم، وعلى ذلك أجابت خولة بقولها: وددت ذلك..!

ادخلى على أبى فاذكرى له ذلك.

فدخلت عليه خولة ـ وكان شيخًا كبيراً قد غشى بصره وعجز عن مغادرة داره ـ فألقت عليه بالتحية. فقال: من هذه؟

قالت: خولة بنت حكيم.

قال: فما شأنك؟

قالت: إن مُحمّد بن عبدالله بن عبد المطلب أرسلنى أخطب عليه سودة.

فصاح الشيخ: كفء كريم.. فما تقول صاحبتك؟

قالت خولة: تحب ذلك.

قال الشيخ: ادعيها إلىّ.

فلما جاءت سودة إلى أبيها سألها:

أى بنية، إن هذه (يعنى خولة) تزعم أن مُحمّد بن عبدالله ابن عبد المطلب أرسل يخطبك، وهو كفء كريم، أفتحبين أن أزوجكه؟

قالت: نعم.

فقال زمعة لخولة: قولى له فليأت.

ومضت خولة إلى مُحمّد وأبلغته بالأمر، فذهب إلى بيت زمعة، فعقد له زمعة على ابنته.

وأتمت خولة مسعاها فى بيت أبى بكر، وعقد أبو بكر لمُحمّد على عائشة.

وزُفّت سودة إلى مُحمّد، أما عائشة فلم تُزف إليه لحداثة سنها إلا بعد زمن من ذلك الحين.

وكان أخو سودة واسمه عبد بن زمعة فى الحج وعاد، فلما سمع بزواج أخته من النبى ﷺ - حثى[1] التراب على رأسه حزنًا وغضبًا، فقد كان أحد المشركين الذين يضيقون بالإسلام ويكنّون لنبيه العداء.

وأسلم عبد فيما بعد، وكان كلما تذكر ما حدث منه يوم غضب لزواج أخته من النبى ﷺ، حزن وندم وقال: إنى لسفيه يوم أحثو على رأسى التراب أن تزوج رسول الله ﷺ، بسودة بنت زمعة[2].

ولعلنا ندرك من ذلك أن سودة كانت فى أسرة مشركة، فأبوها شيخ كبير مقيم على شركه، وأخوها ممن يؤذون المسلمين ويكيدون لهم، وقد كانت فى عصمة زوج مسلم هلك عنها، فكيف يكون حالها والشرك محيط بها؟ ومن يدفع عنها أذى أبيها وأخيها وهى الوحيدة بينهم التى تنطق بكلمة الإسلام؟

فكان زواج النبى ﷺ رحمة بها وإنقاذاً لها من براثن الكفر؛ وتعزية لها عن زوجها المخلص الوفى للإسلام.

٢ دخلت سودة إلى دار مُحمّد، وهى تعلم علم اليقين أنها لن تملأ شيئًا من مكان خديجة، وإنما تجئ إلى بيته ﷺ جبراً لخاطرها، وعزاء لها عن زوجها وابن عمها (السكران بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود القرشى العامرى) الذى هاجر بها فيمن هاجر إلى الحبشة، ثم مات عنها فى الطريق إلى مكة وترك أرملته سودة من بعده تقاسى محنة الترمل، ومحنْة الاغتراب.

---

(١) حثا التراب يحثيه ويحثوه من باب عدا ورمي بمعني هال وألقي(الصحاح).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير حـ٣ ص، ١٣، وأسد الغابة جـ٤ ص ٥١٦.

وتأثر النبى ﷺ للمهاجرة المؤمنة المترملة أيما تأثر، فما كادت (خولة بنت حكيم) تذكرها له، حتى مد يده الرحيمة إليها يسند شيخوختها، ويهون عليها الذى ذاقت من قسوة الحياة.

وشعرت سودة برفق مُحمّد بها، وأحست رقتّه فى معاملتها، وأدركت أنه إذ يكرمها فإنه يكرّم فيها إسلامها وجهادها، ويكرّم فيها إسلام مثيلاتها من نساء قريش المسلمات وجهادهن.

لقد تزوجت (سودة) من النبى ﷺ وأيقنت من اللحظة الأولى من زواجها، أن حظها من النبى ﷺ، برّ ورحمة، لا حب وتآلف، ولم تخدعها نفسها قط، بل أدركت بتجربة سنها أن بينها وبين قلب محمد ﷺ حاجز لا حيلة لها فيه.. لكن ذلك لم يرعها، بل كان حسبها أن رفعها رسول الله ﷺ إلى تلك المكانة، وأن جعل منها أرملة السكران بن عمرو ـ أما للمؤمنين، وأرضاها كل الرضا أن تأخذ مكانها فى بيت النبى ﷺ، وأن تخدم بناته.

وأحست سودة أن مُحمّداً ـ وقد اطمأن إلى من يركن إليها فى رعاية بيته وبناته ـ قد انصرف إلى التفرغ لجهاده فى سبيل أداء رسالته العظيمة.

ولكن قريشًا وقفت لُمحمّد ودعوته بالمرصاد، ومنذ مات عمه أبو طالب، وماتت خديجة، وجد المشركون فرصتهم السانحة للنيل من مُحمّد والقضاء عليه، فشنوا عليه حربًا لا هوادة فيها وآذوه بكل صنوف الأذى، وبادروه بكل سفه، ونالوه بكل ما يكره، ولم يكفهم كل ذلك، بل خرجوا إلى شتى القبائل يؤلبونهم على مُحمّد وأصحابه ودينه الجديد، حتى أذن النبى ﷺ لأصحابه فى الهجرة فراراً بدينهم من أذى المشركين.

ولطالما سمعت سودة رسول الله وهو يردد آسفا:

والله ما نالت قريش منى شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب!

عندئذ كانت مهمة سودة ومهمة بنات مُحمّد معها هى أن يُسرّين عن مُحمّد وأن يعملن للتخفيف عنه.

وعلى هذا سار جهاد مُحمّد فى سبيل دعوته حتى كانت مهاجرته من مكة إلى المدينة.

وبُنى للرسول بالمدينة مسجد، وبُنى له خلف المسجد، مساكن، وانتقل آل بيت الرسول من مكة إلى المدينة، وأقامت سودة بمسكن من هذه المساكن ثم جاورتها من بعد ذلك عائشة التى كانت قد يفعت ودرجت نحو الصبا فزُفّت إلى الرسول..!!

وقابلت سودة ضرتها الصبية الفتية بترحاب، فأفسحت لها المكان الأول فى البيت، وفتحت لها من قلبها الواسع الحنون الكبير، وكرَّست كل جهدها لخدمة العروس، والسهر على راحتها، وتحرَّت مرضاتها مرضاةً للرسول.

فقد كان لسودة قلب طيب وروح سمحة يرفرفان على كل من عرفته، ولا فرق بين المعرفة القريبة والمعرفة البعيدة، ويشملان كل من اتصل بها، ولو لم يكن هناك من الدواعى والملابسات ما يوجب إظهار مثل هذه الطيبة، أو إبداء مثل هذا الحنان، فهى مسرفة فى حنانها، مبالغة فى عطفها حتى على ضرتها، وحتى على أعداء دينها.

فحينما قدم الرسول والمسلمون بأسرى بدر كانت سودة زوج النبى ﷺ عند آل عفراء (من الأنصار) تواسيهم فى استشهاد رجلين؛ (معوذ وعوف) ابنى عفراء فى غزوة بدر، وذلك قبل أن يُضرب على أمهات المؤمنين الحجاب، فلما علمت أن الأسرى قد أتى بهم، عادت إلى دارها، ورسول الله ﷺ فيه، وإذا أبو يزيد سُهيل بن عمرو، وكان من أقربائها، ومن كبار مشركى قريش وأشدهم عداوة للرسول، فى ناحية الحجرة، وقد شُدّت يداه إلى عنقه ـ كما يُفعل مع الأسير عادة ـ فلم تملك نفسها من أن تقول له:

أبا يزيد؛ أعطيتم بأيديكم.. ألا متم كراما ؟!!

ولم تكد تنتهى من كلامها حتى سمعت صوت النبى ﷺ ينادى من داخل البيت ويقول:

«يا سودة؛ أعلى الله ورسوله تحرِّضين؟!!».

تقول سودة: قلت يا رسول الله! والذى بعثك بالحق، ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت.

وكان يسعدها أن تراه ﷺ يضحك من مشيتها - وكانت ثقيلة الجسم - وأن يأنس أحيانا إلى خفة روحها أو يستملح عبارة من عبارتها..

قالت له مرة:

صليت خلفك الليلة يارسول الله، فركعت بى حتى أمسكت بأنفى مخافة أن يقطر الدم!

فتبسَّم النبى ﷺ ضاحكًا من قولها.

ويروى الرواة في صراحتها أنها كانت ترد على عمر بن الخطاب رغم ما عُرف من شدته، فقد قالوا: إن زوجة عمر راجعته فأغلظ لها، فقالت له: ومَالى لا أراجعك والنبى ﷺ تراجعه زوجاته؟

فانطلق عمر إلى بيت النبى ﷺ فلقي سودة فسألها:

هل تراجعن رسول الله ﷺ؟

فقالت له: ويحك يا ابن الخطاب - دخلت فى كل شىء حتى بين النبى وأزواجه، فاستحيا عمر وانصرف.

وكان عمر قد رأى سودة قبل نزول الحجاب وقد خرجت مع بعض النساء لقضاء بعض حاجاتها - وكانت جسيمة لا تخفى على من يعرفها - فقال لها: يا سودة قد عرفناك. وفي رواية: أما والله ما تخفين علينا، فانظرى كيف تخرجين؟

فانكفأت راجعةً تقول عائشة - رضى الله عنها - ورسول الله في بيتى، وإنه ليتعشى وفي يده عرق فدخلت فقالت: يا رسول الله إنى خرجت لبعض حاجتى، فقال لى عمر كذا وكذا.

قالت: فأوحى الله إليه ونزلت آية الحجاب.

وعمّرت سودة بعد وفاة الرسول سنين عدة، صرفتها فى الصلاة والبر حتى

أن عمر بن الخطاب أرسل إليها فى مدة خلافته غرارة مملوءة بالدراهم فلما وصلتها سألت:

ما هذه..؟!!

قيل لها: هذه دراهم.

قالت: فى غرارة مثل التمر...؟!!

وفتحت سودة الغرارة، وفرقت ما فيها على الفقراء والمساكين.

وقد استجابت سودة للنداء فى قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[1]

وعاشت سودة تعمل الخير ما قدرت عليه، وتصنع المروءة ما استطاعت أن تصنع حتى وافاها أجلها فى آخر زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه على الأرجح، فلقيت ربها راضية بلقائه مرضيا عنها منه.

وقد ظلت أم المؤمنين عائشة، تذكر لها صنيعها، وتؤثرها بجميل الوفاء، فتقول: (ما من امرأة أحب إلىّ من أن أكون فى مسلاخها، من سودة بنت زمعة، لما كبرت قالت: يا رسول الله قد جعلت يومى منك لعائشة).

تحية لك يا أم المؤمنين: (سودة) عبر السنين...! وسلامٌ عليك فى حياتك ومماتك، حتى يوم تُبعثين.

(١) الأحزاب: ٣٣

أم المؤمنين
عائشة بنت أبى بكر
رضى الله عنها

الصِّدِّيقة بنت الصدِّيق، حبيبة رسول الله ﷺ (صحيح البخارى).

علَّمت أمة محمد ﷺ عِلْم رسول الله كما يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال «خذوا ثلث دينكم من بيت عائشة» (أخرجه الترمذى في كتاب المناقب وقال حديث حسن صحيح). وقال الإمام الزهرى: لو جُمع علم عائشة، إلى علم جميع أزواج النبى ﷺ وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل.



[١] ذهبت خولة بنت حكيم إلى دار أبى بكر لتخطب ابنته عائشة إلى رسول الله ﷺ فوجدت أمها (أم رومان) فقالت:

يا أم رومان: ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة!

قالت أم رومان: وما ذاك؟

قالت خولة: أرسلنى رسول الله أخطب له عائشة!

قالت أم رومان: انتظرى حتى يأتى أبا بكر.

وجاء أبو بكر فقالت له خولة:

يا أبا بكر ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة!!

قال أبو بكر: وما ذاك؟

قالت خولة: أرسلنى رسول الله أخطب عليه عائشة.

قال أبو بكر: وهل تصلح له؟ إنما هى ابنة أخيه.

وذهبت خولة إلى مُحمّد فأخبرته بما قاله أبو بكر.

فقال مُحمّد: ارجعى فقولى له، أنت أخى وأنا أخوك فى الإسلام، وابنتك تصلح لى.

فأتت أبا بكر، فذكرت له فقال: انتظرينى حتى أرجع.

قالت أم رومان: إن المطعم بن عدى كان قد ذكر عائشة على ابنه (جبير) ولا والله ما وعد ـ أبو بكر ـ شيئًا قط فأخلف.

فدخل أبو بكر على مطعم وعنده امرأته (أم جبير) ـ وكانت مُشْرِكة ـ فقالت امرأته: يا ابن أبى قحافة، لعلنا إن زوّجنا ابنتك لابننا، أن تصبئه وتدخله فى دينك الذى أنت عليه؟ فلم يرد عليها أبو بكر بل التفت إلى المطعم بن عدى فقال: ما تقول هذه ؟

فقال المطعم: إنها تقول ذاك.

يعنى أنها قالت ما سمعته، وفهم أبو بكر من ذلك أنهما تواطآ على هذا القول، وأنه يعنى أشياء كثيرة. فقد أراد المطعم بن عدى وزوجته أن يشترطا على أبى بكر أن لا يدخل ابنهما فى دينه الجديد كشرط لهذا الزواج، ولم يوافق أبو بكر على ذلك إذ كيف يشترطان عليه ما لا يمكن أن يوافق عليه؟!

لقد وهب أبو بكر نفسه لهذا الدين، يجاهد فى سبيله بماله ونفسه، ويسترخص فيه كل غال، فكيف يحول بيده بين ابنته وبين هذا الدين إذا هو زوّجها بين هؤلاء المشركين الذين يشترطون عليه ما لا يقبله؟!

وعاد أبو بكر سعيداً لأنه عرف أن الله قد أراد له ولابنته خيراً كثيراً.

ثم أرسل لخولة وقال لها: ادعى لى رسول الله ﷺ.

وجاء النبى ﷺ وتم العقد، وكانت عائشة بنت ست سنين كما حدّثت عن نفسها.

ولم يتم زفاف عائشة إلى النبى ﷺ إلا فى المدينة بعد الهجرة، وقد بلغت التاسعة من عمرها أو زادت عليها قليلا.

وفى شوال من السنة الثانية من الهجرة، وحينما اجتمع لمحمد صداق عائشة، جاء رسول الله ﷺ إلى دار أبى بكر وقد اجتمع فيه رجال من الأنصار ونسائهم، ليقدم صداق ابنته، وبينما عائشة لاهية مع صاحباتها وقد جلست فى أرجوحة قد شُدّت بين نخلتين، وصاحباتها يدفعنها تارة إلى الإمام وتارة إلى الخلف، جاء أبو بكر إلى زوجته أم رومان فطلب منها أن تُعدّ عائشة للذهاب إلى بيت زوجها رسول الله.

ونادت أم رومان ابنتها عائشة، فلما جاءتها وقد تسارعت أنفاسها من أثر اللعب وهى لا تعلم ما يُراد منها، أمسكت أم رومان بيدها إلى حيث الماء، فغسلت لها وجهها، وفرقت لها شعرها، ثم جاءت بها إلى جماعة من نساء الأنصار كُنّ بداخل الدار، فأصلحن من شأنها، ثم قادتها إلى حيث كان يجلس رسول الله ﷺ فأجلستها فى حجره وقالت:

هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن، وبارك لهن فيك فنهض الرجال والنساء فانصرفوا، وبهذا البساطة المتناهية تزوجت عائشة من رسول الله ﷺ.

** كيف تتزوج وهى صغيرة؟

وتختلف الأقوال فى سن السيدة عائشة يوم زُفّت إلى النبى عليه السلام فى السنة الثانية للهجرة فيحسبها بعضهم تسعا ويرفعها بعضهم فوق ذلك بضع سنوات. وهو أمر لا غرابة فيه فى بيئة لا تعرف تسجيل المواليد، والراجح أن المطعم بن عدى خطبها لابنه قبل الدعوة يؤيد ذلك رفض المطعم وزوجته ارتباط ابنهما بعائشة وتحلل المطعم من عهده خوفًا أن يقنع أبو بكر ابنهما بعقيدة الإسلام. فمعنى ذلك أنها ولدت قبل الدعوة وكانت تناهز العاشرة يوم جرى حديث زواجها وخطبها النبى عليه السلام ولهذا نرجِّح أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يوم زُفّت إليه وأنها - رضى الله عنها - كانت تسمع تقديرات سَنِّها ممن كان حولها لأنها لم تقرأها بداهة في وثيقة مكتوبة، فكان يعجبها على سُنّة الأنوثة الخالدة أن تأخذ بأصغرها، وكانت هى كثيراً ما تدلّ بالصغر بين أترابها فلا تنسي إذا اقتضى الحديث ذلك أن تقول: وكنت يومئذ جارية حديثة السن. أو كنت يومئذ صغيرة لا أحفظ شيئًا من القرآن. إلى أشباه ذلك من حديثها فى هذا المعنى. ذلك هو التقدير الراجح الذي ينفى ما تقوّله المستشرقون على النبى بصدد زواجه بعائشة فى سن الطفولة الباكرة[1] كما يزعمون.

ولم يكن هذا الزواج بدعا عند العرب، بل هو أمر مألوف، فلا بأس أن تُخطب البنت صغيرة حتى إذا ما أدركت زُفَّت ولم تُزف عائشة إلا بعد الهجرة وبعد أن أدركت.

وفارق السن لا يؤبه به إلا عند متحذلقي العصر الحديث.

وليست العبرة بالسن ولكن العبرة بالأُلفة التى تكون بين الزوجين.

(١) كتاب الصديقة بنت الصديق للأستاذ عباس محمود العقاد ص: ٤٩، ٥٠.

فهل انقطعت الأُلفة بين النبى ﷺ وخديجة وكانت تكبره بخمسة عشر عامًا، كلا بل كانت أوثق ما تكون.

وهل انقطعت الألفة بين النبى ﷺ وعائشة، وكان يكبرها بما يقرب من نصف قرن؟ كلا، بل كانت الألفة بينهما أوثق ما تكون. لقد كان زواجًا ناجحًا بكل المقاييس.

وكان مثل هذا الزواج كثيًرا ما يحدث فى البيئة العربية، وما زال يحدث فى الريف الذى يعنى بالمثل والمعانى أكثر مما يعنى بالمظاهرة والشكليات والعُقد النفسية الحديثة. ولم تكن عائشة رضى الله عنها، أول فتاة تُزفّ في تلك البيئة إلى رجل فى سن أبيها ولن تكون - لقد تزوج عبد المطلب الشيخ من هالة بنت عم آمنة فى اليوم الذى تزوج فيه عبد الله أصغر أبنائه ترب هالة، آمنة بنت وهب.

وتزوج بعد ذلك عمر بن الخطاب من أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وهو فى سن فوق سن أبيها. وعرض عمر على أبى بكر أن يتزوج ابنته الشابة حفصة وبينهما من فارق السن مثل الذى بين المصطفى ﷺ وعائشة[1].

لقد اتضحت حكمة النبي ﷺ في زواجه من عائشة الصغيرة السن التي تفتحت عيناها على هذا الدين، فوعت كل كلمة قالها النبى ﷺ فحفظتها وقدمتها للمسلمين كما سمعتها فانتفعوا بها.. وكان الرواة يذهبون إليها فيسمعون منها ما لم يسمعوه من غيرها.

ولم يتم زفاف عائشة رضى الله عنها إلى النبى ﷺ إلا في المدينة بعد الهجرة وبعد أن أدركت كما قلنا.

وقد سُئلت عائشة متي بني بك رسول الله ﷺ؟

فقالت: لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة خلفنا وخلف بناته فى مكة.. فلما قدم المدينة بعث إلينا زيد بن حارثة، وبعث معه أبا رافع مولاه،

(١) نساء النبى للدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطىء» ص ٨٢.

فأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم أخذها من أبى بكر يشتريان بها ما يحتاجان إليه من الظهر

وبعث أبو بكر عبد الله بن أريقط معهما ببعيرين أو ثلاثة، وكتب إلى عبد الله بن أبى بكر يأمره أن يحمل أهله ـ أمى ـ أم رومان وأنا وأختى أسماء ـ امرأة الزبير ـ فخرجوا مصطحبين.

فلما انتهوا إلى قديد اشترى زيد بن حارثة بتلك الخمسمائة ثلاثة أبعرة ثم رحلوا من مكة جميعًا، وصادفوا طلحة بن عبيدالله يريد الهجرة. تقول: فخرجنا جميعًا وخرج زيد بن حارثة وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة.

وحمل زيد أم أيمن وأسامة بن زيد، وخرج عبد الله بن أبى بكر بأم رومان وأختيه، وخرج طلحة بن عبيد الله، واصطحبنا جميعًا، حتى إذا كنا بالبيش من منى نفر بعيرى وأنا فى محفّة معى فيها أمى، فجعلت أمى تقول: وابنتاه واعروساه.

حتى إذا أدرك بعيرنا وقد هبط من مرتفع فسلّم الله عز وجل ـ ثم إنّا قدمنا المدينة فنزلت مع عيال أبى بكر، ونزل آل رسول الله ﷺ ـ يومئذ يبنى المسجد وأبياتا حول المسجد، فأنزل فيها أهله.

ومكثنا أيامًا فى منزل أبى بكر.

ثم قال أبو بكر: يارسول الله ما يمنعك أن تبنى بأهلك؟

قال رسول الله ﷺ: الصداق.

فأعطاه أبو بكر الصداق، وكان اثنتى عشرة أوقية ونشا[١].

فبعث بها رسول الله ﷺ إلينا.

وبنى بى رسول الله ﷺ ـ فى بيتى هذا الذى أنا فيه، وهو الذي توفى فيه ﷺ ـ وجعل رسول الله ﷺ لنفسه بابًا في المسجد تجاه باب عائشة.

---

(١)الونشن: عشرون درهما ويبدو أنه من ذهب.

قالت: وكانت سودة في أحد تلك البيوت التى إلى جنبى[1] وتقول أسماء بنت يزيد بن السكن: إني قينت (هيأت) عائشة لرسول الله ﷺ، ثم جئته فدعوته لجلوتها، فجاء فجلس إلى جنبها فأتى بعس (قدح ضخم) به لبن فشرب ثم ناولها النبى ﷺ فخفضت رأسها واستحيت، قالت أسماء: فانتهرتها وقلت لها: خذى من يدى رسول الله ﷺ، قالت: فأخذت فشربت شيئًا ثم قال لها رسول الله ﷺ: أعطى تربك (صديقاتك). قالت أسماء: فقلت يارسول الله بل خذه فاشرب منه ثم ناولنيه من يدك، فأخذه فشرب منه ثم ناولنيه، قالت أسماء: فجلست ثم وضعته علي ركبتى ثم طفقت (جعلت) أديره وأتبعه بشفتى لأصيب من مشرب النبى ﷺ، ثم قال لنسوة عندى: ناوليهن، فقلن: لا نشتهيه، فقال النبى ﷺ: لا تجمعن جوعًا وكذبًا[2].

وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها: بنى بى النبى ﷺ فى بيتى، ما نحُرت جزور ولا ذُبحت عليّ شاه، حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة (الأنصارى) بجفنه كان يرسل بها إلى رسول الله ﷺ[3].

وانتقلت عائشة إلى دار رسول الله، وما أولمت لزفافها وليمة ولا ذُبحت لزواجها ذبيحة، وما تناول العروسان فى ليلتهما هذه من طعام غير قليل من لبن كان يرسله سعد بن عبادة كل ليلة إلى دار الرسول، شرب ﷺ بعضا منه، ثم مد يده بالقدح إلى عائشة، فأطرقت برأسها حياءً، ثم تناولته من يد الرسول وشربت ما فيه.

وكانت هذه الليلة ليلة زفاف عائشة إلى رسول الله ﷺ.

وكانت عائشة عروسًا حلوة تتألق حياة ونضارة وصِبًا، خفيفة الجسم، ذات عينين واسعتين، وشعر جعد، ووجه مشرق مُشرّب بحُمرة، وتتصف بالذكاء اللامع، والفطنة الخارقة، وتحفظ الأشعار وترويها، وقد انتقلت إلى بيتها

---

(١) الطبقات: ٨/٤٢.

(٢) مسند أحمد: ٦/٤٥٨.

(٣) الرسل والملوك للطبرى: ٣/١٦٣.

الجديد، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات التى شيدت حول المسجد، من اللبن وسعف النخيل، وضُع فيه فراش من أدم حشوه ليف، ليس بينه وبين الأرض إلا الحصير، وعلى فتحة الباب أُسدل ستار من الشَعَر.

بهذه الصفات كلها، وفى هذا البيت المتواضع، دخلت عائشة بيت الرسول لتبدأ فيه حياتها الزوجية التى ستظل حديث التاريخ، ولتملأه بهجة ومرحًا وسروراً، كما بدأت تأخذ مكانتها المرموقة فى حياة النبى ﷺ وفى تاريخ الإسلام.

ورغم صغر سنِّها لم يكن فى اتصافها بكل هذه الصفات ما يدعو إلى الدهشة، ولم يكن فيه مثار للعجب..!

فأمها أم رومان التى قال فيها الرسول:

«من سّره أن ينظر إلى امرأة من الحورِ العين فلينظر إلى أم رومان!».

وأبوها أبو بكر الصدِّيق، أحفظ من حفظ أخبار العرب وأنسابهم، وأعلم من تحدث فيها.

وحاضنوها من بنى مخزوم، حيث البادية والطلاقة وفصاحة اللسان.

ولم يُضيّق الرسول على عائشة الصغيرة التى كانت لا تزال تغلب عليها روح الطفولة، فلم ينهها عن لِعب لعبته، أو مرح أتته، بل كان يستدعى لها الفتيات اللاتى فى مثل سنِّها ليلعبن معها، وكان يفاكهها، ويضاحكها ويجاريها فيما تقول وتفعل.

دخل يومًا إلى حجرتها فهبت ريح كشفت عن جانب من الحجرة قد صُفّت فيه دُمى على هيئة بنات يتوسطهن فرس له جناحان.

فسألها النبى ﷺ: «ما هذا يا عائشة؟».

قالت: بناتى، فقال: «وما هذا الذى أرى وسطهن؟».

قالت: فرس، قال: «وما الذى عليه؟».

قالت: جناحان. فسألها ﷺ مستفهمًا منكراً: «جناحان؟».

فأجابته عائشة: أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة..؟!

فضحك الرسول من قولها هذا ضحكًا كثيراً.

ودخل عليها الرسول يومًا ـ وكان يوم عيد ـ وعندها جاريتان من جوارى الأنصار تغنيان وتضربان بالدفوف، فما نهاهن عن ذلك، بل اكتفى أن اضطجع وحّول وجهه، وغطى رأسه بثوب له.

ودخل أبو بكر فرأى ما رأى النبى، فأقبل على ابنته ينهرها ويُعنفها وهو يقول:

مزمار الشيطان فى بيت رسول الله...؟!

فكشف النبى ﷺ عن وجهه، وتحول إلى أبى بكر يحول بينه وبين تعنيفه لعائشة، ويقول له:

دَعهْا يا أبا بكر فإنها أيام عيد.

فذاك هو بعض الحنان الذى كان يعامل به النبى عائشة،وهذا هو بعض ما كانت تلقاه بنت أبى بكر الصديق من سماحة زوجها رسول الله ﷺ.

[٢] كان رسول الله ﷺ يحب زوجته عائشة بنت صديقه أبى بكر الصديق حبا جمًا منذ أن تزوجها وهى صبية صغيرة حتى مات وتخير الرفيق الأعلى من الجنة، وكثيراً ما أكد لها هذا الحب بالقول والعمل، وطالما أسمعها عبارات الإعزاز التى كانت تملؤها سعادة، وتشيع بنفسها الفخر والسرور.

فكان ﷺ يقول: «لها حُبك يا عائشة كالعروة الوثقى».

وكانت عائشة تسأل زوجها الرسول بين حين وآخر عن حال العروة الوثقى فيجيبها:

إنها لم تتغير ولم تتبدل.

وكان من إعجاب مُحمّد بعائشة أنه كان يعجب بذكائها وفطنتها، ويُسرّ من لباقتها وسرعة خاطرها. وإذا ما شاهد لها موقفًا من المواقف التى تتجلى فيها مزاياها هذه قال مُعجبًا مشيداً بأبيها! إنها ابنة أبى بكر...!!

ولذكائها وقوة ذاكرتها كان يحدثها بكل ما ينزل عليه من وحى، ويسرد عليها الكثير من خصائص رسالته العظيمة، حتى إنه لكان يقول بعد ذلك لما يعلم من أن ما عَلّمها إيّاه فى حرز مكين:

«خذوا شطر دينكم عن الحُميراء». (يعنى بالحُميراء عائشة لشُقرتها واحمرار شعرها).

ثم إنه لكان يفاكهها كثيراً فيقول لها مثلاً:

«أنت أحبُّ إلى من زُبدَ بتمر».

لقد قال النبى لعائشة حين تزوج بها:

«رأيتك فى المنام ثلاث ليال، جاءنى المَلَك فى سرقة[1]، فيقول: هذه امرأتك فاكشف عن وجهك، فإذا أنت هى، فأقول: إن يَكُ هذا من عند الله

(١) السَّرَقة: بفتح السين قطعة من حرير.

يمضه»[1]، وانتظر رسول الله ﷺ فلم يخطب عائشة حتى جاءته زوجة صديقه عثمان بن مظعون (خولة بنت حكيم) ترشحها له.

لقد زوّجها الله إذن لُمحمّد، وارتضاها له لتعوّضه عن فقد خديجة ولتُذهب بعض ما يشعر به من الحزن على خديجة، ثم هاهى تحب مُحمّداً الحب كله، وترى نفسها تعمل كل ما تراه يحبه، وتأتى ما تحس أنه يريده، وطبيعى لمن تحب زوجها كحب عائشة لُمحمّد، وتعزه كإعزازها له، وتعجب به كإعجابها به ـ أن تغار عليه إذا ما رأت امرأة سواها قد شاركتها فى حبه، وأن تتألم نفسها إذا ما أحست أن غيره يقاسمها الإعزاز له، والإعجاب به.

كانت السيدة خديجة متوفاة منذ سنوات يوم بني النبى بالسيدة عائشة.

ولكن السيدة عائشة كانت تغار منها غيرة لم تنطو على مثلها لشريكاتها اللواتى يعشن معها، لأنها شغلت قلب النبى بعد وفاتها فلم يزل يذكرها ويحب لحبها من كان يزورها أو يراها!

وكان عليه السلام يبرّ بعض العجائز، فسألته السيدة عائشة في ذلك، فقال: إن خديجة أوصتنى بها.. فقالت مغضبة: خديجة.. خديجة.. لكأنما ليس فى الأرض امرأة إلا خديجة.

وعلى حلم رسول الله ربما غضب أحيانًا من ثورتها على ذكرى خديجة، فغضب في هذه المرة وتركها فترة ثم عاد وأُمها ـ أم رومان ـ عندها فقالت له أمها: يارسول الله! مالك ولعائشة؟ إنها حديثة السن، وأنت أحق من يتجاوز عنها. فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاتبًا وهو يقول لها: ألست القائلة: كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة!

وسألته مرة: ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدّلك الله خيراً منها؟

فأسكتها قائلاً: «والله ما أبدلنى الله خيراً منها. آمنت بى حين كذبنى

(١) الحديث رواه مسلم فى فضائل السيدة عائشة، والبخارى فى كتاب النكاح، باب النظر إلى المرأة قبل التزويج وعدة مواضع أخرى.

الناس، وواستنى بمالها حين حرمنى الناس، ورُزقت مها الولد وحُرمته من غيرها ».

حينئذ كفت عائشة عن التعريض بخديجة وقد رأت زوجها الحبيب محمد ﷺ يغضب لأجلها وقالت: يا رسول الله اعف عنى، ولا تسمعنى أذكر خديجة بعد هذا اليوم بشىء تكرهه.

ويقول الحافظ الذهبى فى ذلك: هذا من أعجب شىء أن تغار رضى الله عنها من امرأة عجوز توفيت قبل زواج النبى ﷺ بعائشة بمدة، ثم يحميها الله من مثل هذه الغيرة من عدة نسوة يشاركنها في النبى ﷺ، فهذا من ألطاف الله بها وبالنبى لئلا يتكدر عيشهما، ولعله إنما خفف أمر الغيرة عليها حب النبى ﷺ لها، وميله إليها، فرضى الله عنها وأرضاها.

لقد كان حُبُّ النبى ﷺ للسيدة عائشة أمراً واضحًا، وكان النبى ﷺ يعلنه، فلقد سأله عمرو بن العاص: أى الناس أحب إليك يارسول الله؟ قال: عائشة.

قال: فمن الرجال؟ قال: أبوها.

ولماذا لا يحبهاَ وهى ابنة صاحبه ورفيق هجرته الذى قال فيه رسول الله ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً من هذه الأمة لاتخذت أبا بكرخليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدّ إلا باب أبى بكر وما كان عليه السلام يحب إلا طيبًا.

وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ لعائشة، فكانوا يتحرون بهداياهم في يومها ابتغاء مرضاته ﷺ ومع أنه كان يرسل لكل زوجة نصيبها مما يتلقى وهو فى بيت عائشة، إلا أن الغيرة استفزتهن فتشاورن فى وضع حد لما يلقين من بنت أبى بكر.

وعلى ذلك اجتمعن يتدبرن هذا الأمر، وأشارت زينب بنت جحش على أن يبعثن إلى النبى بابنته فاطمة يلتمسن منه أن يساويهن بعائشة.

ودخلت فاطمة على الرسول وعائشة فقالت:

إن نساءك أرسلننى إليك، وهن ينشدن العدل في ابنة أبى قحافة!

فقال لها ﷺ: «أي بنيه، ألست تحبين ما أحب؟».

قالت: بلى. قال: «فأحبى هذه».

فعادت إليهن فأخبرتهن بالذى سمعت من أبيها ﷺ، وقالت: والله لا أكلمه فيها أبداً.

وأهابت زوجات الرسول بزينب بنت جحش ومن بعدها أم سلمة يطلبن منه ﷺ ما قالت فاطمة من قبل، وأن يأمر الناس أن يرسلوا هداياهم إليه أينما كان، فكان جوابه:

«لا تؤذونى فى عائشة... فإن الوحى لم ينزل علىّ فى لحاف واحدة منكن غيرها».

وعلمت نساء الرسول جميعًا عظم مكانة عائشة عند الرسول أكثر مماكن يعلمن، وعرفن أن من يتعرض لعائشة بإيذاء إنما يؤذى الرسول كذلك.

ويعلق الحافظ الذهبى قائلاً: هذا الجواب منه ﷺ دال على أن فضل عائشة علي سائر أمهات المؤمنين بأمر إلهى، ولعظيم حبها إياه ﷺ، وأن ذلك الأمر من أسباب حبه لها.

ولقد بلغ من منزلتها رضى الله عنها، أنها كانت ترى جبريل أحيانا، حدّث الشعبى عن مسروق قال: قالت لى عائشة: لقد رأيت جبريل في حجرتى علي فرس ورسول الله يناجيه، فلما دخل قلت: يا رسول الله. من هذا الذي رأيتك تناجيه؟

قال: وهل رأيتِ؟

قلت: نعم.

قال: فيمن شبهتِيه؟

قلت: بدحية الكلبى.

قال رسول الله ﷺ : «لقد رأيت خيراً كثيراً، ذاك جبريل.

قالت: فما لبثت إلا يسيراً حتى قال: يا عائشة هذا جبريل يقرأ عليك السلام».

قلت: وعليه السلام، وجزاه الله خيراً.

وكانت السيدة عائشة رضى الله عنها تعرف حب الرسول لها وتحسه، يُروى أن النبى ﷺ قال لها: يا عائشة كنت لك كأبى زرع لأم زرع[1]، وفي رواية: إلا أنه طلقها وإنى لم أطلقك، وزاد النسائى: قالت عائشة: بل أنت خير من أبى زرع.

ولأن النبى ﷺ كان قد خطبها فى شوال، وبنى بها فى شوال، فكانت تحب أن يتزوج قريباتها فى شوال وتقول رضى الله عنها: أى امرأة كانت أحظى عند زوج منى[2].

ويروى عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه ثم يعدل ثم يقول: «اللهم هذا فعلى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك»[3].

كانت السيدة عائشة تغير عليه ﷺ من فرط حبها له.

أبطأ يومًا في الحضور إليها، فسألته:

---

(١) حديث أم زرع طويل روته كتب السُّنة، وملخصه أن احدى عشرة امرأة تعاهدن على ألا يكتمن شيئًا من أخبار أزواجهن، ولما جاء دور الحادية عشرة مدحت زوجها أبا زرع مدحًا فاق كل ما سبقه حتى أنه لما طلقها أبو زرع وتزوجت برجل آخر كريم عدّدت محاسنه وكرم خُلُقه ولكنها عادت فقالت: لو جُمع ذلك كله ما ملأ أصغر وعاء لأبى زرع.

(٢) كان أهل الجاهلية يطيّرون من الزواج فى شوال لما فى اسمه من الأشالة والرفع ويقول ابن سعد فى طبقاته: إنهم كرهوا الزواج فى شوال لطاعون وقع فيه.

(٣) أخرجه النسائى فى عشرة النساء باب حب الرجل بعض نسائه أكثر من بعض، وابن ماجه فى كتاب النكاح برقم ١٩٧١.

ويقول السيوطى فى دعائه ﷺ «فلا تملنى فيما تملك ولا أملك» أى المحبة بالقلب.. ولا تكليف فيها فلا لوم عليها ولا مؤاخذة. ولعل الدعاء. بنى على جواز التكليف بمثله، وإن رفع التكليف =

أين كنت منذ اليوم يارسول الله ؟!

قال: يا حميراء[1] كنت عند أم سلمة.

قالت: ما تشبع من أم سلمة.

فتبسّم ﷺ. ثم قالت: يارسول الله ألا تخبرنى عنك لو أنك نزلت بعدوتين[2] أحدهما لم تُرْع والأخرى قد رُعيت أيهما كنت ترعى؟

قالت: التى لم تُرْع.

قالت: فأنا ليس كأحد من نسائك، كل امرأة من نسائك قد كانت عند رجل، غيرى!

وإذ يلحظ الرسول غيرتها، فيسألها ذات يوم:

أغرت...؟!

فكان جوابها: ومالى أن لا يغار مثلى على مثلك؟!

حقٌ.. ما لعائشة لا تغار على زوجها الرسول الذى تفتحت عيناها على حبه وإجلاله والإعجاب به..!!

= تفضل منه تعالى، فينبغى التضرع ليديم هذا الإحسان، أو المقصود افتقار العبودية، ويقول الإمام الصنعانى: إن القسم عليه غير واجب لقوله تعالى {ترجى من تشاء منهن وتأوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولايحزن ويرضين بما أتيتهن كلهن والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليمًا حليمًا} وهذا من خصائصه ﷺ، لذلك كان قسمه بينهن من حُسْن وكمال خُلقُه ﷺ، ولتأليف قلوب نسائه.

وما عليه الجمهور أن القسم بين نسائه غير واجب وهذا من خصائصه ﷺ كما قال الصنعانى، كما أن له أن يقسم لمن يشاء ويؤخر لمن يشاء، لا حرج عليه فإذا علمت نساؤه أن هذا حكم الله يرضين ولا يسخطن.

(١) كانت السيدة عائشة رضى الله عنها كما قلنا: جميلة ذات وجه مُشرق مُشَرّب بحمره ولذلك كان يداعبها رسول الله ﷺ بقوله: «يا حميراء».

(٢) العُدْوه: شاطىء الوادى وجانبه. وفى القرآن الكريم: {إذ أنتم بالعُدْوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى} (ج) عُدَى.

وهذا إن كان يرضيها فلا يكفيها، بل تريد أن تطمئن على جوارها للنبى ﷺ فى الآخرة أيضًا فتسأله: من أزواجك فى الجنة، فيقول لها النبى ﷺ: أنتِ منهن.

ويفسِّر لنا العقاد[1] سّر تلك الغيرة عند السيدة عائشة رضى الله عنها فيعزوها إلى طبيعة «الأنثى الخالدة» فى كل سمَة من سمَاتها؛ فى غيرتها.. ودلالها.. بل في كل ما عرِفت به الأنثى وما فُطِرت عليهَ.

غضب النبى ﷺ من نسائه لكثرة منازعاتهن وإلحافهن عليه بطلب المزيد من النفقه والزينة، وأقسم ليهجرهن شهراً، فإما إنابة ورشاد، وإما سراح جميل وطلاق.

واعتزل الرسول نساءه قاضيًا أكثر أوقاته فى خزانة له ذات مشربه، يرقى إليها على جذع خشن من جذوع النخل، ويجلس علي عتبتها غلام الرسول (رباح) كلما كان النبى بها.

ومرت الأيام، وعائشة ومعها نساء النبى مروّعات بالهجر، إذ سرت بين المسلمين إشاعة أن النبى طلق نساءه، وكان لهذه الإشاعة رجة عظيمة بين المسلمين، وفى وسعنا أن نتخيل تلك الرجة بين الصحابة إذا علمنا أن صاحبا لعُمر بن الخطاب سمع بالنبأ ليلاً فأسرع إلى بابه يدقه دقًا شديداً، ويسأل عنه فى فزع. فلما خرج إليه قال صاحبه: حدث أمر عظيم.

قال عمر: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم منه وأطول، طلق النبى ﷺ نساءه.

ثم تحرّى عمر الخبر من رسول الله فعلم دون ذلك، وأن رسول الله إنما أقسم ليهجرهن شهراً، فاستأذنه ﷺ لينقل إلى المسلمين حقيقة النبأ.

وبينما المسلمون بالمسجد يومًا مطرقون ينكتون الحصى، وقد انتابهم الحزن من أجل نبيهم، واكتنفهم الغم والقلق من أجل مصير أمهات المؤمنين، وقد مّر

---

(١) كتاب الصديقة بنت الصديق للأستاذ عباس محمود العقاد ص: ٢٤ (بتصرف).

على هجر الرسول لهن ما قرب من تمام الشهر، أقبل عمر بن الخطاب يُعلن عليهم: لم يطلق رسول الله نساءه.

وسُرّى عن الناس، وسُرّى عن أمهات المؤمنين، وتهيأت كل زوجة من زوجات الرسول لاستقبال زوجها الحبيب، ودخل رسول الله ﷺ أول ما دخل على عائشة، فما أن رأته مقبلاً عليها حتى أقبلت عليه تقول فى عتاب رقيق:

بأبى أنت وأمى يا نبى الله! قلت كلمة لم ألق لها بالا فغضبت علىّ.

وإذ أقبل عليها مصغيا، استطردت تقول فى دلال ودعابة حلوة:

أقمست أن تهجرنا شهراً، ولما يمض منه غير تسع وعشرين؟

فأشرق وجهه عليه الصلاة والسلام، وقد سرّه أن يعرف أنها كانت تُحصى ليالى الفراق عداً.

وقال لها إن شهرها ذلك، تسع وعشرون ليلة.

ويعلق الأستاذ العقاد بقوله: «أتراها كانت تنتظر استيفاء الثلاثين ولا تقنع بالهجر تسعة وعشرين يومًا؟ كلا. فقد عدّتهن يومًا يومًا وعلمت ساعة دخول النبى كم مضى وكم بقى على ظنها من أيام العقوبة. ولكنها الأنثى الخالدة كما أسلفنا، ولابد للأنثى الخالدة فى هذا الموقف من مكايدة، ولابد لها من دلال»[1].

ثم قال النبى ﷺ لعائشة:

«إنى ذاكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستشيري أبويك. قالت: ما هو؟

---

(١) مرجع سابق (الصديقة بنت الصديق، ص: ٣٠، ٣١.

فتلا عليها ما أنزل الله من آيات بشأن أزواجه:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾[١].

فقالت عائشة: أفيك أستأمر أبوى، بل أختار الله ورسوله وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت... فقال:

«إن الله تعالي لم يبعثنى متعنتًا ولكن بعثنى مُعلمًا مبشراً. لا تسألنى امرأة منهن شيئًا إلا أخبرتها»[٢].

وخرج الرسول بدور على نسائه جميعهن يخبرّهن فيما خيّر فيه عائشة، فاخترن جميعًا الله ورسوله والدار الآخرة.

وفرح النبى ﷺ، وعاد إلى دار الحبيبة عائشة، وإلى نسائه جميعًا، وهن مسلمات، مؤمنات، قانتات، تائبات، عابدات.

ونجت (عائشة) من محنة الهجر، ومن قبل نجاها الله من محنة فادحة منكرة، وتجلت لها رحمته تعالى حين أظلمت الدنيا حولها، وأوشكت على الضياع... فأنزل الله تعالى براءتها من السماء في قرآن يُتلى ويتعبد به المسلمون... تلك كانت محنة الإفك ننقلها فيما يلى من الصفحات.

٣ لو لم يكن لعائشة من الفضل إلا أن أثبت الله براءتها مما حيك حولها من افتراء لكفى.. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[٣].

---

(١) الأحزاب: ٢٨، ٢٩.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) النور: ١١.

وحادثة الإفك الذى جاء به المفترون عن عائشة، والذى اختلقوه وآثاروه أول حديثه: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه فأيها خرج سهمها، خرج بها رسول الله ﷺ، وفى خروجه إلى إحدى هذه الغزوات، وكانت غزوة بن المصطلق ـ اقترع بين نسائه على التى تخرج معه، فخرج سهم عائشة.

وصحبت عائشة زوجها مُحمّد فى سفره، حتى إذا بلغ المسلمون غايتهم من السير، ونزلوا عند ماء يُقال له المريسبع، وهناك أحاطوا ببنى المصطلق الذين خرج الرسول لغزوهم بعدما بلغه أنهم يجمعون الجموع برئاسة زعيمهم الحارث بن أبى ضرار لقتله.

وانتصر المسلمون على بنى المصطلق انتصاراً حاسمًا، وبينما هم يستريحون ويستجمون قبل الرحيل، تزاحم على الماء رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار (الخزرج)، وتصارع الرجلان كلٌ ينادى قومه: هذا يقول:

يا معشر الأنصار..!!

وذاك يقول: يا معشر المهاجرون..!!

وسمع تصارع الرجلين عبدالله بن أُبى رأس المنافقين، وهو من الخزرج.. وتفوّه بألفاظ كان فيها تحريض منه للأنصار ضد المهاجرين، وكادت تحصل بسبب ذلك فتنة، لولا أن تدارك الرسول الأمر بحكمته، بأن أمر المسلمين بالرحيل، واستعجلهم استعجالاً شديداً حتى لا يزيد الخلاف بين المهاجرين والأنصار ويشتد، ومن ثمّ أسرع المسلمون فجأة إلى رحالهم فشدوّها، وأخذوا يواصلون سيرهم ليلاً ونهاراً إلى المدينة كأمر الرسول وقبل أن يصلوا للمدينة، أمر النبى أصحابه أن يحطوا رحالهم ليأخذوا قسطًا من الراحة من عناء الحرب والسفر وحتى يبزغ الفجر.

وحدث أن خرجت (عائشة) رضى الله عنها لقضاء حاجة لها فى الصحراء، وذهبت بعيداً لئلا تقع عليها عين أحد، فلما فرغت انفرط عن

عنقها عقد ثمين لها كانت تتزين به، وعزّ عليها ضياع العقد، فكرّت راجعة تبحث عنه حيث تظن أنها فقدته.. وبعد أن وجدت السيدة عائشة عقدها رجعت إلى مقر المعسكر فلم تجد فيه أحداً، فقد ارتحل القوم، دون أن يفطنوا لعدم وجودها فى داخل هودجها، فقد كانت خفيفة الوزن، ورحلوا بالبعير مع الجيش.

وأدركت عائشة أن القوم لابد سيفتقدونها سريعًا، وأن الرسول سيعجل بإرسال من يبحث عنها، وسيكون بلا شك محور بحثهم الأول حيث كانوا ينزلون، وبهذا الخاطر سُرّى عن نفس عائشة، واطمأن قلبها، فالتفت بثيابها واضطجعت على رمال الصحراء تنتظر مجئ الباحثين عنها.

ولم يطل الوقت بعائشة فى انتظار النجدة فقد ساقها الله فى شخص صفوان بن المعطّل السُّلمى.

كان صفوان قد تأخر وراء الجيش فى حاجة له، فلمح سواداً على الأرض فاتجه يتبيّنه، وهو يحسبه متاعًا خلّفه المسلمون من ورائهم فيحمله لهم، فإذا به يجد السيدة (عائشة)، عرف صفوان زوجة رسول الله ﷺ فقد كان يراها قبل أن يُفرض على النساء الحجاب ـ فقال:

إنا لله وإنّا إليه راجعون!! ظعينة رسول الله.....!!

ما خلّفك يرحمك الله ؟!

فلم ترد عائشة على صفوان جوابًا، وقدّم لها بعيره لتركب ثم استأخر عنها حتى ركبت، فأخذ بمقود البعير حتى أوصلها للمدينة فى الظهيرة.

وعند هذا الحد كان الأمر طبيعيًا ولم يثر عند الرسول أدنى شك أو يلفت نظر المسلمين إليه.

ولكى ينفذ الله أمره في الابتلاء أتاح لهذا الحادث لسانًا أفاكا كذابًا هو (عبدالله بن أبىّ) رأس المنافقين وعدو رسول الله الأول، فأشاع بهْتانًا وزوراً على (عائشة) واتهمها ظلمًا بما ليس فيها.

وكان ممن تكلم بحديث الإفك نقلاً عما كان يتسرب من مجالس ابن أُبيّ: (حمنة بنت جحش)، ابنة عمة مُحمّد، وأخت زينب بنت جحش، التى كانت مكَانتها تلى مكانة عائشة فى قلب الرسول، ومسطح بن أثاثة قريب أبى بكر، والذى كان أبوبكر يتولى أمره وينفق عليه، وحسان بن ثابت الشاعر.

وبلغ الحديث أُذنى مُحمّد ﷺ، كما بلغ مسامع أبى بكر وأم رومان فصكها صكًا! لكن أحداً منهم لم يستطع أن يواجه (عائشة) بالشائعة الرهيبة، إذ كانت منذ عادت من غزوة بنى المصطلق، معتلّة تشتكى شكوى شديدة، فظلت لا تدرى ما يقول الناس عنها ولا يبلغها من ذلك شىء، إلا أنها أنكرت من رسول الله جفوة ظاهرة، وقد عودّها من قبل أن يلطف بها، ويغمرها بحنانه، فأمست هذه المرة ولاحظّ لها من ذلك اللطف والحنان إلا أن يدخل عليها من حين إلى حين وعندها أمها تمرّضها فيسأل:

«كيف حالكم؟ ويسكت».

فتقول عائشة:

حتى وجدت فى نفسى فقلت: حين رأيت ما رأيت من جفائه لى: يا رسول الله، لو أذنت لى فانتقلت إلى دار أمى فمرْضتنى؟

قال: «لا عليك».

فانتقلت إلى أُمى ولا علم لى بشىء مما كان، حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة.

فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى (أم مسطح) ثم عدنا فعثرت أم مسطح فى مِرْطها (ثوبها) فقالت: تعِس مسطح!

قلت: بئسما قلت، أتسبين رجلا قد شهد بدراً؟

قالت: أو لم تسمعى ما قال؟

قلت: وماذا قال؟

فأخبرتنى بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا على مرضى.

فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى، ورجعت فما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى، وقلت لأمى:

ـ يغفر الله لك! تَحدّث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئًا!

قالت: أى بُنيّة! خففى عليك الشأن، فوالله لقلّما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر، إلا كثّرن وكثّر الناس عليها.

لكن (عائشة) لم تتعزَّ بقول أمها بل باتت مُسَّهَدة لا يزفأ لها دمع، ولا تكتحل عيناها بنوم.

ولم يستطع الرسول أن يسكت على رجف المُرْجفين[1] أكثر مما سكت، ولا أن يحتمل ما بنفسه من ريبه وشك أكثر مما احتمل، فدعا بابن عمه على بن أبى طالب، وأسامة بن زيد ابن ربيبه زيد بن حارثة يستشيرهما فى أمر عائشة.

وأثنى أسامة على عائشة وقال:

يا رسول الله؛ أهلك؛ وما نعلم منهم إلا خيراً، وهذا الكذب والباطل.

أما علىّ فقال: يا رسول الله؛ إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسَل الجارية فإنها تجيبك.

ودُعيت بريرة جارية عائشة، فسألها النبى، وقام إليها علىّ يضربها ضربًا شديداً وهو يقول لها:

ـ أصدقى رسول الله.

فتقول الجارية: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئًا إلا أنى كنت أعجن عجينى، فأطلب منها أن تحفظه، فتنام عنه لحداثة سنّها، فتأتى الشاة فتأكله.

---

(١) (أرجف) القوم): خاضوا فى الأخبار السيئة وذكر الفتن، والمرجفون: الذين يتقولون الأخبار الكاذبة المثيرة للفتن والاضطراب.

وراح الرسول يسأل زوجتـه زينب بنت جحش عـن عائشـة ـ وكانت أختها حِمنْة ممن أفصح بالإفك عنها ـ فقال لها:

«ماذا علمتِ أو رأيت؟».

وعصم الله زينب بدينها، فأجابت الرسول على الفور:

أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت إلا خيراً!

وراح النبى إلى عُمر بن الخطاب ـ أول صديق وأكبر معاون له بعد أبى بكر ـ يبثه ذات نفسه، وما يعتمل فى قلبه فيما يذيع الناس عن عائشة.

ونظر عمر، وهو الذى كان أشد الناس صلابة ضد النساء نظرة المستنكر إلى مُحمّد لما يراود فكره من ظنون وقال:

من زوّجها لك يا رسول الله؟

أجاب مُحمّد: «الله تعالى».

قال عمر: أفتظن أن الله دلّس عليك فيها، سبحانك هذا بهتان عظيم!

ويخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وقد اجتمع فيه المسلمون من المهاجرين والأنصار فيخطبهم قائلاً:

«يأأيها الناس، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق.. والله وماعلمت منهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتًا من بيوتى إلا وهو معى».

فتكاد أفئدة المسلمين تنخلع تأثراً لنبيهم فى هذا البلاء، ويشورون غضبًا لشرف زوجة كريمة، وعقيلة حُرّة، فتختلط أصواتهم فى طلب الانتقام والتأديب، ويتماسك الأوس والخزرج متصايحين مطالبين بأعناق أصحاب الإفك من هؤلاء وأولئك، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شرٌ وفتنة تدخّل فيها الرسول وصرفها بحكمته.

وغادر مُحمّد المسجد إلى دار أبى بكر، فإذا عائشة هناك مقرّحة الأجفان، عندها أبواها، وهى تبكى، وبجوارها امرأة من الأنصار تبكى معها!

ولأول مرة منذ شاع حديث الإفك، جلس ﷺ يحدث عائشة، قال:

«يا عائشة، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس، فاتقى الله، وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبى إلى الله، فإن الله يقبل التوبة من عباده».

وما أن سمعت عائشة حديث زوجها - وهو يدل على أنه قد دخل فى نفسه شيئًا مما قال الناس عنها - حتى ثارت نفسها، والتهب الدم فى عروقها، فجف فى الحال دمعها، والتفتت إلى أبويها، منتظرة أن يجيبا عنها رسول الله، فإذا هما مطرقان[1] واجمان[2]، فلم تملك نفسها أن هتفت بهما: ألا تجيبان....؟!

قالا: والله ما ندرى بم نجيب...؟!

وإذ رأت عائشة أبويها لا يسارعان إلى نجدتها، ولا يجيبان عنها رسول الله، خنقتها عبراتها بفيض من الدمع أطفأ اللهب المشتعل فى كيانها، ثم اتجهت إلى زوجها تقول فى إصرار:

والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً، والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس - والله يعلم أنى بريئة - لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى.

وحاولت أن تتذكر اسم (يعقوب) لتتأسى به فى محنتها فما استطاعت، واستطردت: إنما أقول كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[3] ثم تحولت فاضطجعت على فراشها.

فلم يبرح رسول الله مجلسه عندها، حتى تغشّاه ما كان يتغشّاه من نزول الوحى، فسُجى بثوبه، ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه.

---

(١) أطرق: أمال رأسه إلى صدره وسكت فلم يتكلم.

(٢) وجم: عبَس وأطرق وسكت عن الكلام لشدة الحزن.

(٣) يوسف: ١٨.

ولم تخف عائشة ولم تبال، بل أحست أن الله لا بد مبرئها عند رسوله، وإن كانت تظن فى نفسها أنها أصغر شأنًا من أن ينزل فيها وحىٌ من عند الله، فلما سُرِّى[1] عنه ﷺ وهو يضحك، كان أول كلمة تكلم بها « يا عائشة، أما والله، لقد برأك الله. فقالت أمى: قومى إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله. وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[2].

ونهض أبو بكر يُقبّل رأس ابنته، فقالت له: بحمد الله، لا بحمدك، ولا بحمد صاحبك، يا أبتاه، ألا كنت عذرتنى؟!

فأجابها أبو بكر: أى سماء تظللنى! وأى أرض تقللنى! إن قلت بما لا أعلم!

وخرج رسول الله إلى المسجد يتلو على الناس ما أنزل الله عليه من آيات من براءة عائشة، وأمر النبى بجلد من أفصحوا بالفاحشة كأمر القرآن الذى أنزل عليه، فجُلدوا.

وهكذا انتهت محنة الإفك، وهكذا انزاحت عن عائشة بويلاتها وآلامها، فهى:

حليلة خير الناس دِينًا ومنصبا ... نبى الهُدى والمكرُمات الفواضل
مُهذّبة قد طيّبَ الله خيمها ... وطهّرها من كل شين وباطل

وعادت عائشة إلى دار زوجها الحبيب، رسول الله ﷺ، فرحة جذلة، تتمتع بحبه إياها، وعطفه وحنانه أكثر مما كانت تتمتع، وقد زادت مكانتها فوق ما كانت، فأضحت تتيه على ضرائرها، وتفخر عليهن بقولها:

أنا التى أُنزلت براءتى من السماء.

---

(١) سُرِّى عنه: كُشفَ عنه.
(٢) النور: ١١.

ع كانت السنوات التى تلت محنة الإفك حافلة بجلائل الأحداث.

وشهدت السيدة عائشة انتصارات النبى ﷺ، فكانت تتلقاه وهو عائد منتصراً من غزواته، وترى دعوته وهى تنتشر وتزدهر فى أرجاء الجزيرة العربية.

ثم آن للقائد أن يستريح بعد حياة ناصبة مناضلة مجاهدة.. وآن للرسول البشر، أن يرجع إلى ربه، بعد أن بلغ رسالته.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[1].

سمع المسلمون نبيهم ﷺ يتلو عليهم هذه الآية فى حجة الوداع، فلم يدركوا معناها، ما خلا رجلا واحد هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه، بكى وهو يسمع النبى يتلو هذه الآية، فقد أدرك أن مهمة الرسول الذى بعثه الله بها قد انتهت، وعرف أن يوم وفاته قد بات جد قريب.

عاد النبى ﷺ من حجة الوداع سنة عشر هجرية إلى (المدينة) فما أقام بها غير قليل حتى أرق ذات ليلة من أخريات صفر سنة إحدى عشرة، فخرج إلى البقيع يزور الأموات ويستغفر لهم، فلما رجع رسول الله ﷺ من البقيع وجد السيدة عائشة تشكو صداعًا فى رأسها، وتقول: وارأساه!

فقال: «بل أنا والله يا عائشة وارأساه!».

ثم قال يفاكهها مداعيًا: « وما ضرك لو مُتّ قبلى فقمت عليك، وكفنتك، وصليت عليك ودفنتك؟ ».

ردت وقد هاجت غيرتها:

ليكن ذلك حظ غيرى! والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك، لقد رجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك! فتبسّم رسول ﷺ، وسكت به الألم عن أن

---

(١) المائدة: ٣.

يواصل دُعابته معها، ولما سكن عنه بعض الألم، قام يتم دورته على سائر نسائه، حتى اشتد به وهو فى بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن فى أن يُمرّض حيث يحب فى بيت عائشة، فأذنَّ له، وقلن:

يا رسول الله، قد وهبنا أيامنا لعائشة.

وانتقل الرسول إلى بيت الزوجة الحبيبة التى كانت أشد أزواجه نضالاً فى سبيل الاستئثار بحبه، وأكثرهن كفاحًا فى سبيل الاحتفاظ به، فبقى ببيتها تُمرّضه وتسهر عليه، وجاء بلال يؤذنه للصلاة، وقد ثقل، فقال: «مروا أبا بكر أن يصلى بالناس» فقالت عائشة: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى ما يقم مقامك لا يُسمع الناس، فلو أمرت عمر؟

فقال ﷺ: «مروا أبا بكر أن يصلى بالناس...،» الحديث[1].

قالت عائشة: لقد راجعت رسول الله ﷺ فى ذلك، وما حَمّلنى على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع فى قلبى أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبداً، ولا كنت أرى أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به، فأردت أن يعدل رسول الله ﷺ، عن أبى بكر[2].

وأزفت ساعة الفراق بين مُحمّد وعائشة. حينئذ كان الرسول يسند رأسه إلى حجْر عائشة، فوجدت عائشة الرسول يثقل فى حجْرها، فذهبت تنظر فى وجههِ، فإذا بصره قد شخص وهو يقول: بل الرفيق الأعَلى من الجنة.

فقالت: خُيّرت فاخترت والذى بعثك بالحق!

وقُبض رسول الله ﷺ حيث يحب، وهو فى حِجرّ عائشة رضى الله عنها[3].

وكادت تكون فتنة، عصم الله المسلمين منها حين ألهم أباها بكر أن يقف فى المسلمين خطيبا فيقول:

(١، ٢) متفق عليه من حديثها (ك الصلاة، اللؤلؤ: ح ٢٣٩، ٢٣٧).

(٣) ابن إسحاق فى السيرة (٣٠٥/٤) بإسناده عن عباد بن عبد الله بن الزبير عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

(أيها الناس، إنه من كان يعبد مُحمّداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حى لا يموت).

ثم تلا فيهم قوله تعالى فى كتابه المنزل على رسوله ﷺ:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[1].

فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت، حتى تلاها (أبو بكر) يومئذ[2].

وقرر المسلمون أن يُدفن الرسول حيث مات، فدُفِن فى حُجْرة عائشة.

وبذلك نالت عائشة شرف دفن الرسول ببيتها، وكما سعدت بحبه حيًا، سعدت بمجاورة قبره ميتًا.

وعاشت عائشة سعيدة بمجاورة قبر مُحمّد ما عاشت. إلى أن دُفن إلى جواره صاحبيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما.. فمن شدة حياءها وورعها رضى الله عنها أنها كانت تحتجب بعد دفن عمر حياءً منه.

قالت: كنت أدخل البيت الذى دُفن فيه رسول الله ﷺ وأبى رضى الله عنه واضعة ثوبى وأقول: إنما هو زوجى وهو أبى، فلما دفن عمر رضى الله عنه (معهم) والله ما دخلته إلا مشدودة عَلىّ ثيابى حياءً من عمر رضى الله عنه[3].

وبقيت بما أخذت من تعاليم الرسول خير منبع لتعاليم الإسلام ما بقيت.

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

(٢) صحيح البخارى: مناقب أبى بكر رضى الله عنه (٢/٢٠١).

(٣) السمط الثمين: ٦٤ وقال أخرجه يحى بن معين.

⑤ بعد أن استُشهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه فى يوم الجمعة ١٨ من ذى الحجة سنة ٣٥هـ تمت البيعة للإمام علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه.وكانت السيدة عائشة حينذاك بمكة تؤدى فريضة الحج، فلما خرجت تريد العودة إلى المدينة علمت باستشهاد عثمان وسيطرة الثوار على المدينة، ومبايعة على بن أبى طالب بالخلافة، فحولّت ركائبها عائدة إلى مكة، وأعلنت أن عثمان قُتل مظلومًا وطالبت بدمه، واجتمع إليها طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، ومروان بن الحكم وسائر بنى أُمية، واتفق الجميع على الرحيل إلى البصرة.

وعلى ذلك راحت عائشة، تطلب من أمهات المؤمنين صُحبتها، وتزين لهن الخروج معها، فكان أن طلبت من أم سلمة أن تصحبها وتخرج معها. ولكن أم سلمة كانت مع الجانب الآخر، جانب علىّ وصحبه، وهو الخليفة، ووجهت إليها النصح قائلة:

أى خروج تخرجين... إن عماد الدين لا يُقام بالنساء.

قالتْعائشة: ما أعرفنى بنصحك وأقبلنى لوعظك!

إن أقم ففى غير حَرج، وأن أخرج ففى إصلاح بين فئتين من المسلمين.. وأرجو فيه الأجر إن شاء الله.

وعلى ذلك رفضت أم سلمة مصاحبة عائشة، وحينما وجدتها تهئ نفسها للخروج بصحبة طلحة والزبير وأشياعهما.

كتبت إلى على بن أبى طالب تناصره، وتخبره بما كان من عائشة وطلحة والزبير، ولم تكتف بذلك بل بعثت إليه بابنها عمر ليخرج معه قائلة: ولكنى باعثة إليك بابنى عمر، والله لهو أعز على من نفسى، ليخرج معك.

وطلبت عائشة من أمهات المؤمنين، ما طلبت من أم سلمة، فلم يجبنها إلى ما طلبت غير حفصة بنت عمر التى قالت:

رأيى تبع لرأى عائشة.

ولكنها لم تلبث أن نهاها عن الخروج أخوها عبدالله بن عمر، فانتهت.

ونادى المنادى فى الناس، عائشة تريد البصرة، ليحضّ الناس على الخروج مع زوجة الرسول بنت أبى بكر الخليفة الأول.

فلبى النداء نفر كبير من أهل مكة والمدينة، كما اجتمع عليه نفر آخر من مختلف القبائل المتفرقة فى بلاد العرب.

وسار المطالبون بدم عثمان، ومعهم عائشة فى هودج على جملها (عَسْكر)[1]، يقوده الدليل العربى، يتبعها أمهات المؤمنين حتى ذات عرق - بظاهر مكة - وهناك بكوا جميعًا على الإسلام فلم يُرَ يوم أكثر بكاءً من ذلك اليوم، حتى لقد سُمّى بعد ذلك، بيوم النحيب.

واتجهت أمهات المؤمنين بعد ذلك إلى المدينة، أما عائشة وطلحة والزبير، وركبهما، وكان قوامه ثلاثة آلاف رجل، فقد اتجهوا جميعًا صوب البصرة، واختلفوا فيمن يؤم الناس للصلاة، أيكون طلحة أم الزبير؟!

وآثار هذه الزوبعة مروان بن الحكم.

ولكن عائشة حسمت الموقف، وبعثت إلى مروان تقول: أتريد أن تفرق أمرنا؟ ليُصلِّ ابن أختى (تعنى عبد الله بن الزبير).

وهكذا تلافت أمراً قد يؤدى الخلاف فيه إلى النزاع وتفريق الكلمة.

وفى الطريق إلى البصرة، مرّوا بماء الحوأب، فنبحتهم كلابه، فقالت عائشة: ما أظننى إلا راجعة. قال بعض من كان معها: بل تُقْدمين فيراك المسلمون، فيصلح الله ذات بينهم، قالت: إن رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «ليت شعرى! أيتكن تنبحها كلاب الحوأب..؟!» وقيل إنه يومها جاءها رجل فأقسم أَن هذا ليس بماء الحوأب.

ولما علم عثمان بن حنيف الأنصارى وإلى البصرة، بقدوم السيدة عائشة ومن معها، بعث إليهم برسولين له يستفسران الأمر، فقالت عائشة رضى الله

(1) هو اسم للجمل الذى كانت تركبه السيدة عائشة رضى الله عنها.

عنها: إنها قادمة لتعرّف أهل البصرة ما فعله الثوار فى أهل المدينة، وتبصّرهم بما ينبغى عمله لإصلاح الأمر. وقال طلحة والزبير: إنهما يطلبان بدم عثمان، فقيل لهما: ألم تبايعا عليّا. قالا: والسيف على رقابنا، وتقدموا نحو البصرة، فلاقاهم عثمان بن حنيف بقواته، ودار قتال سقط من بينهما القتلى، وكثر الجرحى.. وانهزم عثمان بن حنيف وقواته، واستولت عائشة على البصرة، وذهب عثمان إلى علىّ حيث كان ينزل بجيشه بالربذة يقص عليه ما حدث.

وبعث علىّ إلى أنصاره من الكوفة وغيرها يطلب تأييدهم ومعاونتهم وبعث طلحة والزبير إلى أهل الشام والكوفة واليمامة والمدينة يعرّفانهم بما تم من أمر البصرة، ويطلبان منهم إمدادهم بالمعونة والسلاح.

وجاء إلى على المدد، فسار حتى أشرف على البصرة، ومن هناك بعث إلى عائشة برسول هو (القعقاع بن عمرو) للتوفيق بين الطرفين، وقابل القعقاع عائشة، وقابل طلحة والزبير، واتفق الطرفان على السكينة والصلح ومبايعة علىّ، عَلَى أن يثأر لعثمان من قتلته.

وعلم فريق عائشة، وفريق علىّ بأمر هذا الاتفاق، فلم يرض به أكثرهم، ولم يقرُّوه، وخشى قتلة عثمان ومُحرّضوهم على أنفسهم، فعملوا على إذكاء روح الثورة والرغبة فى القتال بين الفريقين، وعلى ذلك تناوش الفريقان وتنابذا، ومن ثمة تحاربا وتقاتلا برغم ما كان من مسعى الفريقين إذ ذاك للتوفيق.

وهكذا وجد الفريقان أنفسهما أمام قتال لابد من وقوعه، وتجاه حرب لا مناص من خوضها.

وجاء إلى عائشة نفرٌ من أتباعها يقولون: أدركى؛ فقد أبى القوم إلا القتال لعل الله يُصلح بك! ولكن تم للقتلة ما أرادوا فنشب القتال بين الطرفين بدلا من السلام المتفق عليه، واستعر القتال فيما يُعرف بموقعة (الجمل).

وبعد محاورة مع الإمام علىّ، ندم الزبير على خروجه لحرب علىّ، وترك القتال بعد أن كان ممن سعوا إليه وتسببّوا فيه، فسبق إليه (عمرو بن جرموز)، وإذ رآه مستدبراً للصلاة طعنه من الخلف فقتله، وذهب يبشّر به الإمام علىّ.. فقال له: أبشر قاتل الزبير بالنار. وكذلك ندم طلحة على خروجه لحرب علىّ، ولكنه أُصيب بسيف إصابة بالغة، فما زال ينزف دمه، حتى إذا أشرف على الموت مّر به رجل من أتباع على، فسأله طلحة: من أتباع من أنت؟

فلما أجابه قال: امدد لى يدك حتى أبايعك لصاحبك.

وهكذا مات طلحة والزبير، كما قتل محمد بن طلحة، وجُرح عبد الله بن الزبير وهو آخذ بخطام جمل عائشة بعد أن مات دون هذا الخطام نحو من سبعين رجلا.

ودارت رحى المعركة من حول الجمل شديدة عنيفة، فلما رأى علىّ كثرة تساقط القتلى من حول الجمل ورأى أنه مركز الهجوم، وأن عنده خط الدفاع، صاح فى أتباعه أن أنيخوا هذه الجمل فتقدم أحدهم فضرب عرقوب الجمل بسيفه فسقط، ثم نُقل الهودج وفيه السيدة عائشة خارج ميدان المعركة تأمينًا لسلامتها، وانتهت المعركة بالنصر لجند الخليفة.

وأمر علىّ أن تُنقل عائشة إلى البصرة، فنُقلت وأُنزلت بأعظم دار بها، ودخل علىّ البصرة بعد أن صلى على القتلى، وأمر بدفنهم، وسار هو وبنوه إلى الدار التى أُنزلت فيها عائشة، فزارها فيها، وطلبت عائشة من علىّ أن يؤمن ابن أختها عبد الله بن الزبير وغيره من الجرحى، فأمنهم.

وأرسل علىّ إلى عائشة يطلب منها العودة إلى المدينة، وأمر أن تجهّز معها أربعون امرأة من نساء البصرة المعروفات كمرافقات تكريمًا لها، وأن يصحبها أخوها عبد الرحمن بن أبى بكر وكل من أراد العودة ممن كان يتابعها من الرجال.

وخرج علىّ، وخرج الناس فى توديعها فقالت - بعد أن نصحتهم ألا يعتب الناس بعضهم على بعض - : والله ما كان بينى وبين علىّ فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندى - على معتبتى - من الأخيار.

وقال علىّ: يا أيها الناس، صدقت والله وبرّت، ما كان بينى وبينها إلا ذاك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ فى الدنيا والآخرة.

وكان خروج السيدة عائشة إلى البصرة متأولة قاصدة الخير، وكذلك اجتهد طلحة والزبير وغيرهم من كبار الصحابة رضوان الله عليهم. وما كانت رضوان الله عليها تظن أن الأمر يبلغ ما بلغ وكانت تذكر هذا الأمر وتندم كثيراً، فلقد روى عنها: أنها كانت تقرأ الآية: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[1] فتبكى حتى تبلّ خمارها[2].

كما روى أنها أوصيت: إذا مرّ ابن عمر (أى عبد الله) أن أوتيه: فلما مرّ بها قيل لها: هذا ابن عمر، قالت: يا أبا عبد الرحمن، ما منعك أن تنهانى عن مسيرتى. قال : رأيت رجلا قد غلب عليك (يقصد ابن أختها عبد الله بن الزبير).

وكانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تحدّث نفسها أن تُدفن فى بيتها (قريبا من النبى ﷺ) ولكنها راجعت نفسها بعد ذلك، وعدلت عن فكرتها تلك، وقالت: إنى أحدثت بعد رسول الله ﷺ حدثا أدفنونى مع أزواجه، فدُفنت رضوان الله عليها فى البقيع مع أزواجه ﷺ.

وأخرج البخارى عن عائشة أنها قالت لعبد الله بن الزبير: ادفنى مع صواحبى، ولا تدفنى مع النبى ﷺ فإنى أكره أن أزكى.

٦ وعاشت (عائشة) لتكون المرجع الأول فى الحديث والسُّنة، والفقيهة الأولى فى الإسلام.

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) الطبقات الكبرى: ٨/٥٦.

قال مسروق بن الأجدع الهمداني، التابعي الفقيه الإمام القدوة: لقد رأيت مشيخة أصحاب مُحمّد ﷺ الأكابر يسألونها فى الفرائض. وكان إذا حدّث عنها قال: حدّثتنى الصدّيقة بنت الصديق، حبيبة حبيب الله.

وقال الإمام الزهرى: لو جُمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبى ، وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل.

وقال أبو موسى الأشعرى: ما أشكل علينا أمر فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها فيه علمًا.

وكان من إيمان الناس بما تروى، ومن تصديقهم لما تقول، أن كان ابن الزبير إذا حدّث عنها يقول: والله لا تكذب عائشة على رسول الله أبداً.

ولم يُفد من علمها الفقهاء وحدهم، بل تعدى علمها إلى الكثير من مسائل الطَب كما يعرفه أهل زمانها، وإلى الإلمام بعلم الفلك بحسب ما كان يتصوره العرب، وإلى التحدث عن أنساب العرب وسرد تواريخهم وعرض حوادثهم، حتى قال عنها هشام بن عروة عن أبيه رضى الله عنه: ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة.

وقد سُئلت عائشة ذات مرة فقيل لها:

يا أم المؤمنين، هذا القرآن تلقيته عن رسول الله ﷺ، وكذلك الحلال والحرام، وهذا النسب وأحاديث الناس، سمعتها من أبيك وغيره، فما بال الطب؟

قالت: كانت الوفود تأتى رسول الله ﷺ، فلا يزال الرجل يشكو علّة، فيسأله عن دوائها، فيخبره بذلك، فحفظت ما كان يصفه لهم وفهمته.

إن ما فهمته وما حفظته عائشة مما كان يصف رسول الله لوفوده يدعو حقا إلي الإعجاب الشديد بذكائها وقوة ذاكرتها، ولكنه ليس بمستغرب من ابنة أبي بكر التى عُرفت برجاحة العقل، وتوقد الذهن، وقوة الذاكرة.

أما ما كانت تعرفه عائشة في علم الكواكب والنجوم والفلك فقد رُوي عنها أيضًا، وظل يُحكى به من بعدها.

سهرت يوما عائشة بنت طلحة[1] - بنت أخت عائشة أم المؤمنين (زوجة مصعب بن الزبير في ذلك الوقت) - مع جماعة من كبار رجال الدولة، وتذاكر الرجال في سهرتهم أخبار العرب، وتحدثوا في أشعارها، وحكوا عن أيامها، وعائشة بنت طلحة تفيض معهم في كل ما يطرقونه، ويفيضون فيه. وما طلع نجم في السماء أثناء مجلسهم هذا، ولا غار كوكب، إلا عرفته وسمّته، مما دعا أحدهم إلي أن يسألها دهشا مستعجبًا: أما الأول فلا أنكره، وأما النجوم فمن أين لك؟!

قالت: أخدتها عن خالتى عائشة.

وكانت عائشة رضى الله عنها فوق هذا كله فصيحة اللسان فصاحة كانت أيضًا مثاراً للعجب، وكانت فوق هذا وذاك تتمثل بالشعر وترويه، وكانت خطيبة بليغة جهورية الصوت، وقد شهد ببلاغتها وفصاحتها الكثيرون، حتى لقد قال فيها الأحنف بن قيس - وهو أشعر الناس فى عصره -: سمعت خطبة أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، والخلفاء بعدهم، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من فم عائشة.

ويمكن الاستشهاد على براعتها فى الحفظ والبلاغة بما ذكر عنها فى كتاب الدرّ المنثور..

قال القاسم بن محمد بن أبى بكر[2]: لما قُتل أبى بمصر، جاء عمى عبد الرحمن بن أبى بكر فاحتملنى أنا وأُختَالي من مصر، فقدم بنا إلى المدينة. فبعثت إلينا عائشة فاحُتملنا من منزل عبد الرحمن إليها، فما رأيت والدة قط ولا والداً أبّر منها، فلم نَزَل فى حجرها حتى أدركنا... ثم بعثت إلى عمى عبد الرحمن، فلما دخل عليها تكلمت، فحمدت - الله عز وجل - وأثنت عليه - فما رأيت متكلمًا ولا متكلمة قبلها ولا بعدها أبلغ منها.

---

(١) عائشة بنت طلحة، أمها أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق، وأبوها الصحابى الجليل طلحة بن عبيد الله التيّمى، أحد العشرة المبَشّرون بالجنة. سُميت تيمنا باسم خالتها أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها.

(٢) هو أحد الفقهاء السبعة المشهورين بالمدينة فى زمانه.

ثم قالت: يا أخي إني لم أزل أراك مُعْرِضًا عني منذ قبضت هذين الولدين منك، والله ما قبضتهما تطاولا عليك، ولا تهمة لك فيهما، ولا لشيء تكرهه، ولكنك كنت رجلا ذا نساء، وكانا صغيرين لا يكفيان من أنفسهما شيئًا، فخشيت أن يرى نساؤك منهما ما يتقذرن به من قبيح أمر الصبيان، فكنت ألطف لذلك وأحق لولايته، والآن فقد قويا على أنفسهما، وشبّا وعرفا ما يأتيان، فها هما هذان فضمّهما إليك وكن لهما كحجبة بن المضرب.

ثم قصّت قصة حجية هذا فقالت

كان لحجية أخ يُقال له معدان - مات، وترك صبية صغاراً في حجْر أخيه، فكان أبّر الناس بهم وأعطفهم عليهم، وكان يؤثرهم على صبيانه... فمكث بذلك ما شاء الله.

ثم إنه عرض له سفر، لم يجد بُداً من الخروج فيه فخرج، وأوصى بهم امرأته، وكانت إحدى بنات عمه، وكان يُقال لها زينب. فقال لها:

اصنعي ببني أخي ما كنت أصنع بهم. ثم مضى لوجهه، فغاب شهراً، ثم رجع وقد ساءت حال الصبيان وتغيرت.

فقال: ويلك، مالي أرى بني معدان مهازيل، وأرى بنيّ سمانا؟

قالت: كنت أواسي بينهم، ولكنهم كانوا يعبثون ويلعبون، فخلا بالصبيان، فقال لهم: كيف كانت زينب تصنع بكم؟

قالوا: سيئة، ما كانت تعطينا من القوت إلا ملء هذا القدح من لبن، وأروه قدحًا صغيراً. فغضب حجبة على امرأته غضبًا شديداً، وتركها وخرج.. فأعطى إبله لبني معدان.

فغضبت من ذلك زينب وهجرته، وضربت بينها وبينه حجابًا.

فقال: والله لا تذوقين منها صبوحًا ولا غبوقًا، وقال في ذلك أبياتا منها:

لجنا ولجّت[1] هذه في التغضّب ... ولطّ[2] الحجاب بيننا والتجنب
رحمت بنى معدان إذ قلّ مالهم ... وحق لهم منى ورب المحصب
وكان اليتامى لا يسد اختلالهم ... هدايا لهم فى كل قعب مشعب
فقلت لعبدينا أريحا عليهم ... سأجعل بيتى اليوم بيت آخر مقرّب
وقلت: خذوها واعلموا أن عمكم ... أولى منكم بالتكسب
عيالى أحق أن ينالوا خصاصة ... وأن يشربوا رنقا[3] إلى حين مكسب
أحابى بها من لو قصدت لماله ... حريباً[4] لآسانى على كل موكب
أخي والذى إن أدعه لعظيمة ... يجبنى، وإن أغضب إلى السيف يغضب

قالت عائشة: فلما بلغ زينب هذا الشعر خرجت حتى أتت المدينة، فأسلمت وذلك فى ولاية عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

فقدم حجية المدينة فطلب زينب أن ترد عليه - وكان نصرانيًا - فنزل بالزبير بن العوام فأخبره بقصته.

فقال له الزبير: إن امرأتك قد أسلمت، ولم تعد تحل لك، وإياك أن يبلغ هذا عنك عمر فتلقى منه أذى.

وانتشر خبر حجيّة فى المدينة وعُلِم فيم كان مقدمه، فبلغ ذلك عمر.

فقال للزبير: قد بلغنى قصة ضيفك، ولقد هممت به لولا تحَرمه بالنزول عليك.

فرجع الزبير إلى حجية فأعلمه قوله عمر. فمدحه بقصيدة ثم انصرف من عنده متوجها إلى بلده تاركا زينب، وقال فى ذلك قصيدة.

ثم قالت عائشة: وأنا والله يا أخى خشيت عليك من مثل ذلك لئلا يصيبك ما أصاب حجية وزينب. وأما الآن فقد كبرا وصارا يمكنهما أن يدفعا عن أنفسهما تعديات غيرهما.

---

(١) لجّ: تمادى (فى الخصومة).
(٢) (لطّ): فلانا بالعصا - لطًا: ضربه بها. و - الشىء وبه: ألزقه.
(٣) رَنَقا: (الرَّنْقُ): الماء الكَدِرُ.
(٤) الحريبةُ: السلب فى الحربَ (ج) حرائب.

فأخذهما عبد الرحمن إليه وهو يثنى على عائشة[1].

فهذا الخبر يشير إلى معرفتها بالأخبار واستقصائها لها، وحفظها للشعر وروايتها له.

حدّث عروة عن أبيه قال: ربما روت عائشة القصيدة بستين بيتا والمائة بيت[2].

ولقد رُويت لها خطب كانت فى منتهى البلاغة والفصاحة، وقد اعتنى الرواة بجمعها وروايتها.

وكانت لها كلمات تذهب مذهب الحكم والأمثال:

* كتبت إلى معاوية بن أبى سفيان تقول: أما بعد، فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عز وجل عاد حامده من الناس ذامًا.

* أنكم لن تلقوا الله بشيء خير لكم من قِلّة الذنوب. فمن سَرّه أن يسبق الدائب المجتهد فليكفّ نفسه عن كثرة الذنوب.

* سُئلت عن الحناء فقالت: شجرة طيبة وماء طهور.

* قيل للسيدة عائشة: متى يكون الرجل مسيئًا؟ فقالت: إذا ظن أنه مُحْسن[3].

* بلغ السيدة عائشة أن أناسًا يسبُّون أبا بكر وعمر رضى الله عنهما، فقالت: إن الله قطع عنهما العمل (أى بوفاتهما) فأحب أن لا يقطع عنهما الأجر[4].

* دخل عليها أبو سعيد، وهو أخ لها من الرضاع، فوجدها تخيط منقبة لها (ترقّعها)، فقال لها: يا أم المؤمنين، أليس الله قد أكثر الخير؟

(١) الدار المنثور فى طبقات ربات الخدور لزينب بنت على ص ٢٨١.

(٢) الطبقات: ٨/ ٥٠.

(٤)وفيات الأعيان: ٣/١٧.

فقالت: لا جديد لمن لا خلق (أى قديم) له.

* لاسهر إلا لثلاثة: مصل أو عروس أو مسافر.

* وكانت رضى الله عنها تتمثل أحيانا بقول الشاعر:

بجزيك أو يثنى عليك وإن من　　　أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

وكانت عائشة رضى الله عنها كثيرة العبادة، فقد كانت تصوم أكثر الدهر، وتسرد الصوم أى تصوم الأيام التى لم يرد فى حقها النهى[1].

وعاشت بعد يوم الجمل، وقد نفضت يدها من الناحية السياسية، ولكنها ظلت مقصداً يقصده العلماء والفقهاء، فى فك ما يستعصى عليهم أو يستغلق أمامهم من الأمور العلمية والفقهية، وعاشت عائشة ولا راحة لنفسها إلا عمل البر، ولا مسرّة لقلبها إلا مساعدة الفقراء، حتى كانت تنفق على الفقراء كل ما يأتيها من مال، دون أن تبقي لنفسها شيئًا.

كانت كريمة زاهدة. كما أخبر أبو معاوية الضرير عن الأعمش فى خبر يرويه عروه بن الزبير قال: رأيت عائشة تتصدق بسبعين ألفا، وإنها لترقع جانب درعها[2].

وجاءها ذات يوم مال كثير من ابن الزبير، فقسمته جميعًا على الفقراء، وكانت يومئذ صائمة كعادتها فى أكثر الأيام، فلما جاء وقت الإفطار طلبت من جاريتها أم درّة أن تأتيها بما تفطر به، فلم تجد أم درّة ما تأتيها به من الإدام غير الزيت، فقالت أم درّة: يا أم المؤمنين؛ أما استطعت فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحما تفطرين عليه؟!

فقالت: لا تعنفينى، لو كنت أذكرتنى لفعلت[3].

---

(١) الطبقات الكبرى: ٨/ ٥١.

والأيام المنهى عن صومها عمومًا: يوم العيد وأيام التشريق وهى ثلاثة أيام تلى عيد الأضحى، وأجاز بعض أصحاب الشافعى صومهم كنذر أو كفارة أو قضاء، ويوم الجمعة منفرداً وكذلك يوم الشك.

(٢) أعلام النبلاء: ٢/ ١٨٧.

(٣) الطبقات: ٨/ ٤٦.

وهذا الزهد هو الزهد الجميل، زهد الواجد لا زهد الفاقد. على أن ذلك لم يمنعها من التمتع بطيبات الحياة أحيانا. امتثالا لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾[١].

فقد رُوى عنها أنها كان لها كساء من خز تلبسه فأعطته عبدالله بن الزبير.

وروت أسماء أنها دخلت على عائشة وعليها ثياب من السير[٢] الصفاق ودرع وخمار ونقبة قد لُوِّنت بشيء من عصفر[٣].

لقد كانت ـ رضى الله ـ عنها ـ ذات أفق واسع ونظرة بعيدة.

سأل بعضهم القاسم بن محمد: إن ناسا يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن الأحمرين ـ العصفر والذهب ـ فقال: كذبوا، والله لقد رأيت عائشة تلبس المعصفرات وتلبس خواتم الذهب[٤].

وكانت ـ رضى الله عنها ـ تنصح النساء أن يتجملن فى نظر أزواجهن. فقد حدّثت بكرة بنت عقبة أنها دخلت على عائشة ـ رضى الله عنها ـ وهى جالسة فى معصقرة فسألتها عن التزين. فقالت لها: إن كان لك زوج واستطعت أن تجعلى مقلتيك أحسن مما هى فيه فافعلى[٥].

لقد فهمت الدين فهما صحيحا، وأنه أباح الزينة والتمتع بالطيبات التى أحلها الله بل لقد لبست ـ رضى الله عنها ـ الفراء ـ قال لها محمد بن الأشعث: ألا نجعل لك فرواً نهديه إليك فإنه أدفأ تلبسينه؟

فقالت: إنى لأكره جلود الميتة.

---

(١) الأعراف: ٣٢.

(٢) السير: نوع من الثياب، والسيراء ضرب من البرود وقيل يخالطها حرير (اللسان).

(٣) الطبقات: جـ ٨ ص ٤٨.

(٤) الطبقات: جـ ٨ ص ٤٨.

(٥) المرجع السابق: جـ ٨ ص ٤٨.

فقال: إنى سأقوم عليه ولا أجعله إلا ذكيا، فجعله فأرسل به إليها فكانت تلبسه[1].

على أن ذلك كله لم يكن بقصد التزين أو التفاخر، ولكنه كان شيئًا كما اتفق، يجئ أمراً طبيعيًا ـ تقديراً لنعمة الله، وتوضيحا على أن التزمت فى فهم الدين مرفوض، وهى فى مقام القدوة ينظر إليها المسلمون رجالهم ونساؤهم نظرة اقتداء وتأسى.

ولذلك فهى تحذِّر من الخروج على حدود الحشمة. دخلت عليها حفصة بنت عبد الرحمن بن أبى بكر وعليها خمار رقيق يشف عن جيبها، فشقته عائشة عليها وقالت: أما تعلمين ما أنزل الله فى سورة النور؟

ثم دعت بخمار فكستها به[2].

أما رفقها بالضعفاء ورأفتها بهم فكان الدليل عليهما أنها أعتقت مائة رقبة من الأرقاء. وأما عن زهدها: فكانت لا تخلع ثوبًا حتى ترقعه، وتقول فى ذلك: قال لى رسول الله : «إن أردت اللحوق بى فيكفيك من الدنيا كزاد الراكب، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تستخلعى ثوبًا حتى ترقعيه».

ويمتد العمر بالسيدة عائشة بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، في عبادة وورواية وسؤال وإجابة كما قلنا، حتى تمرض مرضها الأخير. ويستأذن عبدالله بن عباس فى الدخول عليها ليعودها، فلما استأذنها ابن أخيها عبدالله بن عبد الرحمن فى دخوله، قالت: دعنى من ابن عباس، فلا حاجة لى به، ولا بتزكيته.

قال لها عبدالله: يا أمُه، إن ابن عباس رضي الله عنه صالحى بنيك، يودعك ويسلم عليك، قالت: فأذن له إن شئت.

ودخل ابن عباس، فلما قعد قال:

(١) المرجع السابق: ٨/٤٩.
(٢) الطبقات: ٨/٥٠ والخمار كل ما ستر ومنه خمار المرأة وهو ثوب تغطى به رأسها (ج) أخمرة.

أبشرى، فوالله ما بينك وبين أن تفارقى كل نصب، وتلقى محمداً ﷺ والأحبة إلا أن تفارق روحك جسدك.

ـ ايه يا ابن عباس!

ـ كنت أحبَّ نساء رسول الله ﷺ إليه، ولم يكن يحب إلا طيبًا، سقطت قلادتك ليلة الأبواء، وأصبح الرسول ليلتقطها فأصبح الناس ليس معهم ماء، فأنزل الله ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾[1] فكان ذلك سببًا من سببك، وما أنزل الله بهذه الأمة من الرخصة. ثم أنزل الله تعالى براءتك من فوق سبع سموات، فأصبح ليس مسجد من مساجد يُذكر فيها، إلا براءتك تُتلى فيه آناء الليل والنهار.

ـ دعنى عنك يا ابن عباس، فوالله لوددت أنى كنت نسيا منسيا.

ويُروى أنها لما حضرتها الوفاة قالت: يا ليتنى لم أخلق، يا ليتنى كنت شجرة أُسبّح وأقضى ما علىّ. تقول هذا رغم عبادتها وورعها وزهدها وتقواها، وهكذا تكون خشية العالم لله، وَقال تعالى «إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ» [2]

وكانت وفاتها ـ علي الأرجح ـ ليلة الثلاثاء لسبع عشرة مضين من رمضان سنة سبع وخمسين، وهى في السادسة والستين من عمرها، وصلى عليها (أبو هريرة)، ثم شُيعت جنازتها فى غسق الليل إلى البقيع ـ كما أوصت ـ على أضواء مشاعل من جريد مغموس فى الزيت، وسارت الجموع من ورائها باكية معولة، فلم تُر ليلة أكثر ناسًا منها.

وأودع جثمانها الطاهر مع أمهات المؤمنين، وقد ألغى الموت ما كان بينها وبينهن من غيرة وتنافس، وأخمد الزمن ذلك اللهب الذى توهج أعوامًا فى ذلك الكيان الرقيق اللطيف.

وكانت رحمها الله قد أوصت أن تُدفن من ليلتها مع صواحبها بالبقيع، الذى امتلأ بالنساء كأنه عيد.

---

(١) النساء: ٤٣.

(٢) فاطر: ٢٨

قالت أم المؤمنين، أم سلمة رضى الله عنها لما سمعت الصرخة على عائشة: والله لقد كانت أحب الناس إلى رسول الله ﷺ إلا أباها.

وبكى عليها فيمن بكى، عبدالله بن عمر، فبلغ ذلك معاوية بن أبى سفيان، فقال له: أتبكى على امرأة؟

فقال ابن عمر: إنما يبكى على أم المؤمنين بنوها، وأما من ليس لها بابن فلا.

ونزل معها إلى القبر ولدا أختها أسماء (ذات النطاقين) عبدالله وعروة ابنا الزبير، والقاسم وعبدالله ابنا أخيها محمد، وعبدالله ابن أخيها عبد الرحمن، وكلهم من رواة الحديث عنها.

ونامت أخيراً، وخلفت الدنيا من ورائها ساهرة فيها، والتاريخ مشغولاً برصد دقائق حياتها منذ كانت فى السادسة من عمرها، معنيا بتتبع حركاتها وسَكَناتها وكلماتها طوال الأعوام الستين التى عاشتها ملء الحياة، من الشهر المبارك شوال، الذى شَرُفت فيه بالزواج من خير البشر، خاتم النبيين عليهم وعليها السلام.

أم المؤمنين
حَفْصة بنت عمر
رضى الله عنها

طلّقها رسول الله ﷺ فنزل جبريل عليه السلام فقال له: «راجع حفصة فإنها صوّامة قوّامة، وإنها زوجتك فى الجنة»

وهى حافظة المصحف الشريف بعد جمعه فى بيتها رضى الله عنها وأرضاها.

هى حفصة بنت عمر بن الخطاب، وأمها زينب بنت مظعون أخت الصحابى الجليل عثمان بن مظعون[1]. تزوجت أولاً من قريب لها هو الصحابى الجليل (خُنيس بن حذافة بن قيس بن عدى السهمى القرشى) وكان من أصحاب الهجرتين، هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين الأولين إليها، ثم إلى المدينة، وشهد (أحد) كذلك، ثم مات بعدها فى دار الهجرة، من جراحة أصابته فى أُحُد، وترك من ورائه أرملته الشابة (حفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية).

وتألم عمر لابنته التى لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها، وبدأ يشعر بانقباض أليم كلما دخل بيته ورأى ابنته فى حزنها، فبدا له - بعد تفكير طويل - أن يختار لها زوجًا صالحًا يرعاها وتأنس إلى صحبته، فتسترد بعض الذى أضاعت فى حداد استغرق ستة أشهر أو تزيد.

ولم يتردد عمر بل ذهب من فوره إلى أبى بكر يعرض عليه الزواج من ابنته حفصة، وفى يقينه أن (أبا بكر) سيرحب بالشابة التقية الورعة ابنة صديقه عمر.

ولكن أبا بكر ظل صامتًا لا يجيب.

وانصرف عمر وهو لا يكاد يصدق أن صاحبه رفض (حفصة) بعد أن عرضها عليه.

وسارت به قدماه إلى منزل (عثمان بن عفان) وكانت زوجته السيدة رقيّة بنت محمد ﷺ، قد مرضت بالحصبة - بعد عودتها من الحبشة - والمسلمون يلقون عدوهم فى بدر، ثم ماتت رضى الله عنها، بعد أن تم النصر للمؤمنين.

وتحدث عمر إلى عثمان، فعرض عليه (حفصة) وهو لا يزال يحس مهانة الرفض من أبى بكر، وأطرق عثمان مفكراً، ثم رفع رأسه وقال لعمر:

- أمهلنى أيامًا يا عمر أفكر.

(١) كان عثمان بن مظعون عابداً مجتهداً، هاجر الهجرتين، وكان أول من دُفن من المهاجرين فى البقيع.

وانصرف عمر من مجلس عثمان وهو لا يشك فى رغبة عثمان فى مصاهرته، ولعل الله قد اختار لحفصة (عثمان).

وهو تعالى يعلم أى الرجلين أصلح للأرملة الشابة.

ولكن عثمان أبلغ عمر بعد أيام بعدم رغبته فى الزواج قائلا: ما أريد أن أتزوج اليوم!

فاغتاظ عمر من قسوة الموقف، ثم اشتد به الغضب، فانطلق إلى رسول الله ﷺ يشكو له ما يجد من صاحبيه.

ولاطف رسول الله عمر، وقال: «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة» وفرح عمر، واشتد سروره.. يا الله.. أيتزوج رسول الله من ابنته حفصة، فيأسو جرحه... ويمسح بيده الكريمة ما تخلّف من إيذاء أبى بكر وعثمان له فى نفسه؟!

وقام إلى المصطفى يصافحه متهللا، وقد زال عنه ما كان يجد من مهانة الرفض.

وخرج مسرعًا ليزفّ إلى ابنته، وإلى أبى بكر وعثمان، وإلى المدينة كلها بشرى الخطبة المباركة.

ولقيه أبو بكر فما نظر إليه حتى أدرك على الفور سرّ تهلله وفرحه، فمدّ إليه يده مهنئًا معتذراً يقول:

(لا تجد عَلىّ يا عمر.. فإن رسول الله ﷺ ذكر حفصة، فلم أكن لأفش سرّ رسول الله ﷺ، ولو تركها لتزوجتها).

ومضى كل منهما إلى ابنته.

أبو بكر ليهوّن على (عائشة) من وقع الخبر.

وعمر ليبشر (حفصة) بأكرم زوج.

وتزوج رسول الله ﷺ من حفصة، فأكرم فيها أباها عمر بن الخطاب، وزيره ومستشاره بعد أبى بكر، وأكرم فيها أرملة مهاجر مجاهد، هاجر وجاهد فى سبيل الإسلام.

وانتقلت حفصة إلى بيت الرسول وبه من زوجاته، سودة بنت زمعة، وعائشة بنت أبى بكر قد سبقتاها إليه، واستقبلت سودة حفصة بنفس راضية، وأما (عائشة) فغاظها أن يأتيها زوجها بضرة، وما فعل ذلك قط مع (خديجة).

وضايقها ألا تجد فى (حفصة) عيبًا، فهى من هى، شبابًا وتُقى، وعزة، ونسبًا.

لقد كانت (عائشة) تزهو على سودة وخديجة من قبلها، بشبابها الغض، وأبيها الصاحب الأول، أحد العشرة المبشّرين بالجنة، وحظ (حفصة) من هذين ليس بالذى يُنكر أو يُجحد.

واحتارت ماذا تفعل، إذ كانت تقدر مغزى زواج كهذا يُرضى عمر، ويباركه الإسلام والمسلمون، فضلاً عما تعرفه من مكانة عمر فى نفس النبى، وما بين أبيها أبى بكر وعمر من صداقة وإعزاز وائتلاف.

وسكتت (عائشة) على مضض وغيرة، إلى أن وفدت على بيت النبى أزواج جديدات، فتناست عائشة، ما كانت تجد من (حفصة) وحاولت أن ترى فيها أقرب ضرائرها إليها، وأجدرهن بأن تقف معها فى وجه الخطر المشترك.

وأدركت حفصة، أنها إذا جاز لها أن تنكر ضرة لها، فليس من الحق أو العدل أن تكون هذه الضرة (عائشة) وقد سبقتها إلى بيت النبى ﷺ وإلى قلبه.

وربما جرح شعورها أن تعرف حب المصطفى لعائشة، لكنها حين توالت الضرائر، وقفت دون تردد إلى جانب عائشة بنت أبى بكر.

وكان عمر يراقب ابنته حفصة فى قلق مبهم، فيخيفه هذا التقارب ـ غير الطبيعى ـ بين ابنته وبنت أبى بكر.

فقد خشى أن يكون فى تآلفهما إغضاب لرسول الله، فلما وضح له ما وراء تقاربهما من تآمر بالزوجات الأخريات كره لحفصة أن تساير صاحبتها، وليس لها مثل حظها من حب الرسول ﷺ، ولا مكانتها من قلبه.. فأقبل على ابنته يحذرها أن تتشبه بالصبية الحبيبة، ويقول لها يذكرها بمكانتها ووضعها:

أين أنت من عائشة..؟! وأين أبوك من أبيها..؟!

وسمع عمر من زوجته أن ابنته تراجع الرسول ﷺ حتى يظل يومه غضبان، فمضى من فوره حتى دخل عليها فسألها إن كان حقا ما سمعه؟

قالت حفصة: والله إنّا لنراجعه ـ تعنى أنها تفعل ذلك ـ وكان ذلك لشدة حنانه ورفقه بهن ﷺ.

فزجرها عمر قائلاً:

(تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله، وغضب رسوله، يا بنيّة لا يغرنك هذه التى أعجبها حُسْنها، وحب رسول الله لها ـ يعنى عائشة ـ والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك، ولولا أنا لطلقك).

والرسول الكريم ﷺ كان يسع نساءه بحلمه وفضله، لأنه كان يعرف طبائع النساء، وما خلقهن الله عليه، فكان يصفح، وكان يعفو.

ولكن إذا تجاوز ذلك الحدود، كان يردهن بحزم إلى الطريق الصحيح. وقد دفعت الغيرة (حفصة) إلى أن أفشت سراً لرسول الله ﷺ، وهنا كان لابد من الحزم، فطلق الرسول ﷺ (حفصة).

وعلم عمر بذلك، فاهتزت مشاعره، وشعر وكأن سهمًا غائراً اخترق قلبه، لقد كان سعيداً بمصاهرة رسول الله ﷺ، بالإضافة إلى قربه منه، ومن ثم فقد وقع هذا الطلاق منه موقعًا أليمًا.. وقال فى نفسه مؤنبًا راثيًا لها:

(ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها)!!

ولم تطل الأزمة بعمر وابنته.. فقد أمر الله رسوله أن يراجع حفصة، ونزل جبريل ليقول له:

«راجع حفصة فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك فى الجنة».

وكان مما أُنزل على الرسول من آيات فيما كان بينه وبين حفصة بشأن (مارية) وفيما كان من تظاهر نسائه عليه، ما خرج النبى يتلوه على الناس:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (1) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3) إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (4) عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (5) ﴾[1].

وكم كانت فرحة حفصة غامرة، ومعها نساء النبى، وفرح المسلمون، وكانت فرحة عمر أشد وأكبر.

فقد عاد الرسول إلى أزواجه، وهن مسلمات، مؤمنات، قانتات، تائبات، عابدات، كما جاء فى قول الله، نادمات على ما فرط منهن فى حق رسول الله، حذرات أن يصدر منهن ما يُسيئه أو يُغضبه.

وكانت حفصة أشد زوجات النبى ندمًا وأكثرهن توبة؛ فعاشت ما عاش الرسول تعمل بموعظة الله التى أنزلها على النبى بسببها، وتسير على المنهج الذى أراده الله لزوجات نبيه.

وعاشت حفصة بما رسم الله ورسوله لها، حتى مات الرسول، وعاشت من بعد الرسول صوامة قوامة، لا يُعرف عنها إلا التُّقى، ولا يُنقل عنها إلا ما

(1) التحريم: ١ - ٥.

تروى من أحاديث الرسول التى حفظتها عنه، وقد روى عنها أخوها عبدالله وكثير من الصحابة.

وكانت حفصة ـ إلى جانب تديّنها ـ الوحيدة بين نساء النبى التى تعرف القراءة والكتابة، واختيرت حفصة لتحفظ المصحف الشريف بعد نسخه، فقد بقى القرآن الذى أنزله الله على نبيّه فى صدور حفظته من الرجال، وفى بعض الصحف والرقاع التى كان يُدّون فيها المسلمون آيات الله، ليسهل عليهم حفظها، حتى نصح عمر أبا بكر خليفة المسلمين بعد الرسول، أن يجمع القرآن خوفًا عليه من الضياع، بعد أن كثر موت حفظته من الرجال فى الحروب، فعمل أبو بكر بنصيحة عمر فجُمع القرآن وكُتِب.

وحُفظ القرآن المكتوب عند أبى بكر مدة خلافته، ثم انتقل إلى عمر الذى تولى خلافة المسلمين من بعده.

وشهدت حفصة أمجاد أبيها ومآثره، وفتوح الشام والعراق ومصر على عهده.

إلى أن فُجعت وفُجع المسلمون كافة، بمقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، بطعنات من خنجر أبى لؤلؤة المجوسى، فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة.

وترك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أمر الخلافة شورى لستة من كبار الصحابة، فوليها أمير المؤمنين عثمان بن عفان.

وبعد وفاة عمر، حُفظ القرآن عند (حفصة) وبقى عندها حتى أشار بعضهم على أمير المؤمنين عثمان بن عفان، بكتابة عدة نسخ من القرآن، تُوزع على الأمصار، وذلك لعدم الاختلاف فى قراءته، وخوفًا من التغيير والتبديل فيه، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت حفصة صحف القرآن إلى عثمان، فأمر بنسخها فى عدة مصاحف، وتم توحيد حرف المصحف ورسمه، ووزّعت نسخ المصحف العثمانى على الأمصار الإسلامية الشاسعة، ورُدَّ الأصل إلى حفصة، فظل عندها حتى ماتت.

واستمرت حفصة على ودّها لعائشة طول حياتها، حتى إنها عندما كانت تصحب عائشة، وأزواج النبى إلى مكة لحج بيت الله، وقتل الثائرون بالمدينة عثمان بن عفان، وأرادت عائشة الخروج إلى البصرة لحض الناس على المطالبة بدم عثمان، لم تتأخر حفصة عن أن تقول حين طُلب منها مصاحبة عائشة:

(رأيى تبع لرأى عائشة).

وأخذت فى تجهيز نفسها لمصاحبة عائشة وجيشها فى الخروج إلى البصرة، حتى جاء أخوها عبدالله فنهاها عن الخروج فى تلك الفتنة، فأرسلت إلى عائشة تعتذر بقولها:

عبدالله حالَ بينى وبين الخروج.

فقبلت عائشة عذرها، وقالت:

يغفر الله لعبدالله.

وأقامت حفصة بالمدينة عاكفة على العبادة، صوامة قوّامة، إلى أن حانت ساعة الرحيل، فأوصت حفصة لأخيها عبدالله بكل ما أوصى لها أبوها، وبكل ما تركه فى عُهدتها، وعهدت إليه بمال يتصدق به وقفته لهذا الغرض.

وماتت حفصة بالمدينة، فى عهد معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية، وصلى عليها مروان بن الحكم، وهو أمير المدينة وقتئذ من قبَل معاوية، وحمل نعشها، وسار مع المشيعين ومعه أكابر الصحابة: أبو هريرَة، وأبو سعيد الخدرى، وغيرهما، إلى مثواها بالبقيع مع أمهات المؤمنين رضى الله عنهن، وجلس مروان حتى فرغوا من دفنها، ونزل فى قبرها عبدالله بن عمر، وعاصم بن عمر، وحمزة وأخوه عبيدالله ابنا عبدالله بن عمر، رضى الله عنهم جميعًا.

ويقى لها مع ذكراها أُما للمؤمنين حافظة للمصحف الشريف، ما روت من الحديث عن النبى، وعن أبيها عمر رضى الله عنهما، وروى عنها أخوها عبدالله وابنه حمزة، فى عدد من حُفّاظ التابعين.

أم المؤمنين
السيدة زينب بنت خُزيمة
رضى الله عنها

كانت كريمة تحب الفقراء والمساكين وتعطف عليهم.. وكانت تُسمى (أم المساكين) لرحمتها إياهم ورقتها عليهم (ابن اسحاق فى السيرة النبوية).

لم يكن قد مضى على دخول (حفصة) البيت المحمدى غير وقت قصير، حين دخلته أرملة شهيد قرشى من المهاجرين الأولين (زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبدالله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة الهلالية).

أمها: (هند بنت عوف بن الحارث بن حماطة، الحميرية، وأختها ميمونة بنت الحارث).

وتزوجت زينب بنت خزيمة، قبل النبى، من عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصى القرشى المطلبى[1]، ولما توفاه الله نتيجة إصابته يوم بدر تزوجها رسول الله ﷺ.

وقد أبلت السيدة زينب وزوجها فى يوم بدر بلاءً حسنًا، فى هذه المعركة التى أيد الله رسوله والمسلمون بالنصر على أعدائهم المشركين.

بدأت المعركة فى ١٧ رمضان من السنة الثالثة من الهجرة، بأن تقدم الأسود بن عبد الأسد المخزومى نحو الحوض الذى أقامه المسلمون، يريد أن يشرب منه أو ليهدمه، فعاجله حمزة ابن عبد المطلب بضربة قطعت قدمه ونصف ساقه، ولكنه حبا إلى الحوض فعاجله حمزة بأخرى فقضت عليه.

بعد ذلك خرج من صفوف قريش عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة يطلبون المبارزة، فخرج لهم ثلاثة من الأنصار، ولكن المشركين اعترضوا وقالوا: يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا، فندب النبى ﷺ عبيدة بن الحارث، وحمزة بن عبد المطلب، وعلىّ بن أبى طالب، فقتل حمزة شيبة، وقتل علىّ الوليد، وأعان على وحمزة عبيدة فى قتل عتبة، وخرج عبيدة من بدر جريحا يحمله حمزة وعلىّ، ويسأل عبيدة رسول الله ﷺ

---

(١) تختلف الروايات فيمن تزوجته قبل النبى ﷺ، فيقول ابن شهاب: كانت تحت عبد الله بن جحش وتزوجها النبى بعد مقتله يوم أحد، ويقول قتادة: كانت تحت الطفيل بن الحارث، ويقول أبو حسين الجرجانى النسابه: كانت تحت الطفيل ثم لما طلقها تزوجها أخوه عبيده بن الحارث المطلبى، ولما توفاه الله نتيجة إصابته يوم بدر تزوجها رسول الله ﷺ، والرأى الأخير هو ما عليه أكثر كُتّاب السّير.

سؤالا واحداً: ألست شهيداً يا رسول الله؟،قال: أشهد إنك شهيد. ثم لم يلبث أن توفاه الله على مسيرة ليلة من بدر عند الصفراء فدفنه رسول الله ﷺ، وهو ابن أربع وستين سنة[١].

وكانت زوجه زينب بنت خزيمة تقوم بدورها مع نساء المسلمين فى خدمة الجرحى وتضميد جراحهم وتقديم الماء لهم، لم تشغلها إصابة زوجها عن الاستمرار فى تأدية واجبها مع زمرة نساء المسملين المجاهدات.

وكانت تُلقب بأم المساكين لرحمتها إياهم، ورقتها عليهم، وكانت مشهورة بالكرم والطيبة والعطف على الفقراء.

تزوجها النبى بعد دخوله على حفصة بنت عمر رضى الله عنهما.

وماتت فى حياة النبى بعد زواجها منه بثمانية أشهر، ورقدت فى سلام، كما عاشت فى سلام، وصلى عليها النبى ﷺ، ودفنها بالبقيع، فكانت أول من دُفن فيه من أمهات المؤمنين رضى الله عنهن.

والراجح أنها ماتت وعمرها ثلاثون سنة، بعد حياة زوجية قصيرة، كانت قانعة بها، بما نالت من شرف الزواج بالنبى ﷺ، وأمومة المؤمنين، منصرفة عن شواغل الحريم، بما كان يشغلها من أمر المساكين، قانعة بحظها من تقدير النبى ﷺ، لها، لا يرهقها طمع.

ولم يمت فى حياة النبى ﷺ من أمهات المؤمنين، غير السيدة خديجة أم المؤمنين الأولى - ومدفنها بالحجون فى مكة - والسيدة زينب بنت خزيمة الهلالية، أم المؤمنين، وأم المساكين.

---

(١) ويُروى أن النبى ﷺ مرّ يومًا بالصفراء التى دُفن فيها عبيدة، فقال له أصحابه: إننا نجد ريح المسك فقال ﷺ: وما يمنعكم؟ وها هنا قبر أبى معاوية وهي كُنية عبيدة رضى الله عنه.

أم المؤمنين
السيدة أم سَلَمة بنت زادِ الرَّكب
رضى الله عنها

المشيرة على رسول الله ﷺ يوم صلح الحديبية بالمشورة السديدة التى جمعت أمر المسلمين على طاعة نبيهم، فضربت بذلك مثلاً لرجاحة عقل الزوجة المسلمة.

أسمها (هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر ابن مخزوم) وتكنى بأم سلمة نسبة إلى سلمة ابنها من زوجها عبدالله بن عبد الأسد بن هلال المخزومى.

أبوها رجل من أجواد[1] قريش وسادتها المعدودين، إنه أبو أمية سهيل بن المغيرة المخزومى، ولكرمه وجوده سماه الناس (زاد الركب)، لأنه كان يكفى رفقة السفرهمّ الزاد ومئونة السفر، ولا يترك أحداً يرافقه يحمل زاداً.

وأمها عاتكة بنت عامر الكنانية، من بنى فراس الأمجاد، وكان جدها علقمة يلقب بجذل الطعان، إذ كان فارسًا معدوداً لا ينُافسه أحد فى الفروسية والحروب.

تزوجها عبدالله بن عبد الأسد المخزومى ابن عمة النبى ﷺ، برة بنت عبد المطلب بن هاشم، وكان عبد الله أخا للنبى ﷺ من الرضاع، أرضعتهما «ثويبة» مولاة «أبى لهب»، وهنئ كل منهما بالآخر، وسعدا سعادة كبرى.

وأم سلمة من بنى مخزوم، وهم ثالث ثلاثة قبائل قريش كانت تتنافس الشرف: بنو هاشم، وبنو أمية، وبنو مخزوم، وبنو هاشم وبنو أمية كان يجمعهم عبد مناف.

فكان بنو مخزوم يرون أنهم أحق بالسيادة فى قريش من عبد مناف، ولهذا كان سادة بنى مخزوم أشد الناس عداوة للإسلام وللنبى محمد ﷺ، إذ نظروا إليه نظرة التنافس القبلى على السيادة والشرف.

وكانوا يرون أن محمداً، وهو من بنى عبد مناف، قد أصاف شرفًا جديداً لقومه، وأنه بنبؤته حقق التفوق لبنى عبد مناف على بنى مخزوم.

وكان التنافس بين بنى مخزوم وبنى عبد مناف شديداً فكان بنو مخزوم من أشد الناس عداوة للدعوة الإسلامية، وذهب زعيمهم أبو جهل فى هذا العداء كل مذهب حتى سماه الرسول ﷺ، فرعون هذه الأمة، ودعاه المسلمون بأبى جهل.

(١) يقال جاد بماله فهو جواد: سخا وبذل (ج) أجواد.

ولم يمنع هذا العداء أبا سلمة (عبدالله بن الأسد المخزومى) من الدخول فى الإسلام والإيمان بالله، فقد كان ذا عقل ورأى سديدين، فرأى أن الحق مع النبى ﷺ.

وكذلك كانت (أم سلمة) زوجته ذا عقل راجح، فآمنت معه بالنبى محمد ﷺ. ودعوته، وهكذا أنتظم الزوجان فى ركب الإيمان منذ المراحل الأولى.

ولقى أبو سلمة من قومه العنت، فعذبوه، وكذلك فعلت قريش مع كل من أسلم، حتى أمرهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، فكان أبو سلمة وزوجته أول من هاجرا إلى الحبشة دار الهجرة الأولى.

وحاصرت قريش المسلمين فى شعْب أبى طالب، وامتد الحصار ثلاث سنين، وعانى المسلمون من هذا الحصارَ عناءً شديداً.

وعندما بلغهم فشل الحصار، ظنوا أن قريشًا سترفع أذاها عن المسلمين، فعاد بعض منهم إلى مكة، وكان من بين العائدين أم سلمة وزوجها.

وعادت قريش لسيرتها الأولى فى التعذيب والتنكيل والإيذاء، بل إنها زادت فيه وبالغت، حتى إنها تآمرت على قتل النبى ﷺ، وأعدوا خطة لذلك.

وأذن لرسول الله ﷺ، بالهجرة إلى المدينة.

فأمر الرسول أصحابه بالهجرة ليلحقوا بإخوانهم الأنصار، وقد جعل الله لهم إخوانا وداراً يأمنون بها بعيداً عن أذى المشركين[1]. وكان أبو سلمة وزوجته أول الملبين للهجرة.

وكانت قصة هجرتهما مأساة مثيرة أليمة الوقع، مأساة تدل على تحجر قلوب أولئك الكفرة، الذين ناصبوا رسول الله ومن معه أشد العداء، خرج أبو سلمة عبدالله الأسدى إلى المدينة ورحل لزوجته بعيراً حملها عليه وفى حجرها ابنها سلمة، فلما رآهم رجال بنى المغيرة (قوم أم سلمة) أعترضوا طريقهم،

(١) سيرة ابن هشام: ١٠٩/٢.

وقالوا لأبى سلمة: هذه نفسك قد غلبتنا عليها، فما بال صاحبتنا، لا ندعك تسيرها فى البلاد. ثم انتزعوا خطام بعيرها من يده وأخذوها إليهم. فغضب عند ذلك قوم أبى سلمة: (بنو عبد الأسد بن هلال) وقالوا: والله لا نترك ابنها عندكم إذ نزعتموها من يد صاحبنا. وتجاذب الفريقان سلمة بينهم، حتى خلعوا يده، فكانت مخلوعة حتى مات، وانطلق كل فريق بما يخصه، أم سلمة عند أهلها، وسلمة مع أعمامه من بنى عبد الأسد، وهاجر أبو سلمة إلى المدينة وحده، وبذلك تفرق شمل الأسرة.

واستمر فراق أبى سلمه لأهله ما يقرب من العام، وكانت أم سلمة تخرج كل صباح فتجلس على الصفا تتنسم الأخبار وتبكى فراق زوجها وولدها، وتدعو على من تسبب فى تمزيق شمل الأسرة. وذات يوم رآها رجل من أهلها، فأشفق عليها، وسعى عند أهلها حتى سمح لها بالهجرة إلى المدينة، لتلحق بزوجها إن كانت راغبة فى ذلك، ولما علم بنو عبد الأسد - وهم أهل زوجها - بذلك ردوا إليها ابنها سلمة.

خرجت أم سلمة من مكة قاصدة المدينة ومعها وليدها سلمة على ناقة، ولم تنتظر حتى تبحث عن رفقة مسافرة. ولكن الله رحيم يقيض لها وهى فى التنعيم[١] رجلا شهما لم يكن قد أسلم بعد وهو عثمان بن طلحة[٢] يعرف منها وجهتها، فيقرر فى شهامة العربى مرافقتها حتى تصل إلى المدينة. فلما وصلا إلى المدينة، نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء وقال لها: أن زوجك يا أم سلمه فى هذه القرية، وكان أبو سلمه نازلا بها[٣]. ثم تركها وانصرف.

أخيراً اجتمع شمل الأسرة فى المدينة وعاشت أم سلمه مع زوجها فى سعادة، وانجبا بقية أولادهما: عمر ودره وزينب.

وواصل زوجها (أول المهاجرين) جهاده إلى جانب الرسول فى سبيل دعوة الإسلام: فشهد موقعة بدر، ثم موقعة أحد. وكان موضعًا لثقة النبى، فحينما

(١) التنعيم مكان بالقرب من مكة.

(٢) ولعل الله جازى عثمان بن طلحة عن فعله هذا بأن شرح صدره للإسلام، فأسلم فى هدنة الحديبية وهاجر مع خالد بن الوليد إلى المدينة.

(٣) كانت قرية بنى عمر بن عوف منزلا لسكنى العزّاب من المهاجرين.

خرج النبى فى غزوة العشيرة استعمله على المدينة، وحينما عاد المسلمون من موقعة أحد كان أبو سلمة جريحًا فلما التأم جرحه، عقد له النبى على سرية تبلغ عدتها مائة وخمسين رجلاً، للخروج بها لتأديب بنى أسد الذين طمعوا بعد هزيمة المسلمين فى أن ينالوا من المسلمين منالاً، ونجح أبو سلمة فى مهمته، وعاد إلى المدينة ظافراً منتصراً، إلا أن جرحه الذى أصيب به يوم موقعة أحد ثم التأم، كان التئامه ظاهراً سطحيًا، فقد عاد فانتقص[1] عليه، وما زال به حتى أمرضه، والزمه الفراش أيامًا طويلة.

وبقيت أم سلمة إلى جانب زوجها تمرضه وتعنى به، وداوم الرسول عيادته والسؤال عنه، حتى نزل قضاء الله فى أبى سلمه، فلفظ أنفاسه والنبى بجانب فراشه يدعو له بخير حتى مات، فأسبل عينيه، وكبر عليه تسع تكبيرات.

وقيل للرسول: يا رسول الله، أسهوت أم نسيت؟

فأجاب: «لم أسهُ، ولم أنسَ ولو كبرت على أبى سلمة ألفا لكان أهلاً لذلك».

وبكت أم سلمة، وجزعت أشد الجزع لوفاة زوجها، ثم تذكرت قول أبى سلمة الذى كان يردده على لسانه عن رسول الله ﷺ: «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك احتسب مصيبتى، فأجرنى فيها، وأبدلنى ما هو خير منها» وأنه لما احتضر أبو سلمة قال: اللهم اخلفْنى فى أهلى بخير»[2].

فلما قُبِض، قالت أم سلمة: إنا لله وإليه إليه راجعون، اللهم عندك احتسب مصيبتى فأجرنى فيها، قالت: وأردت أن أقول: وابدلنى خيراً منها، فقلت: ومن خير من أبى سلمة، فما زلت حتى قلتها.

---

(١) انتقص (الشىء) فسد بعد إحكامه.

(٢) وأخرج مسلم وأبو داود والنسائى عن أم سلمة رضى ا< عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبى سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال: إن الروح إذا قبض تبعه البصر: فضج ناس من أهله، فقال: لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير. فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون. ثم قال: اللهم اغفر لأبى سلمة وارفع درجته فى المهديين. واخلفه فى عقبة فى الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له فى قبره، ونوِّر له فيه.

ومرت الأيام، وأنقضت على وفاة أبى سلمة أربعة أشهر، وتمت عدة أم سلمة من زوجها، فتقدم أبو بكر إلى أم سلمة خاطبًا فرفضت، وتقدم عمر بن الخطاب فردته كذلك، فقد كانت أم سلمة تريد أن تجعل وقتها كله لأولادها، وأن تصرف كل عنايتها إلى تربيتهم ورعايتهم، ولكن الله كان يدخر لأم سلمه مصيراً أكرم ولأولادها راعيًا أبر وأرحم.

وكان ذلك، فبعث رسول الله إلى أم سلمة يخطبها إلى نفسه، وترددت أم سلمة فيما تجيب به الرسول، على هذا الشرف، الذى أرسل إليها ليوليها إياه، وتحيرت فيما تقدمه إليه من أعذار. وأخيراً رأت أن تعتذر إليه بأنها تخطت الشباب، وتبين له حالها من كثرة الأولاد، وأن غيرتها شديدة صارمة، قد تسبب لها متاعب، وأنها ليس لها ولى يزوجها إذا رفض أولياؤها الموافقة على هذا الزواج، فكان رد النبى على ذلك:

«أما أنها كبيرة فهو أكبر منها، وأما أولادها فعلى الله ورسوله، وأما غيرتها فإن الله يذهبها عنها، وإن أحداً من أوليائها لن يمانع فى زواجها منه سواء كان حاضراً أو غائب»[1] فقبلت أم سلمة الزواج من رسول الله وتولى زواجها من الرسول ابنها سلمة، وعلمت زوجات الرسول بزواجه من أم سلمة: ذات الجمال والعزة، والشرف والشخصية الأخاذة الجذابة القوية. وقابلت سودة الخبر كعادتها بالرضا والتسليم، أما عائشة فقد استبد بها التفكير، واستولت عليها الغيرة، وتملكها لذلك حزن شديد، لما وصف لها من جمال أم سلمة، فتحايلت حتى رأتها، فرأت فيها أضعاف ما وصفت به، فشكت عائشة ما

---

(١) وقال النبى ﷺ لأم سلمة: أما إنى لا أنقصك مما أعطيت (أختك فلانة..): رحيين وجزتين ووسادة من أدم حشوها ليف.

ويروى عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: فتزوجنى رسول الله ﷺ فانتقلنى، فأدخلنى بيت زينب بنت خزيمة بعد أن ماتت، فإذا جره فاطلعت فيها، فإذا فيها شىء من شعير، وإذا رحى وبرمة وقدْر فنظرت فإذا فيها كعب من إهالة (أى كتلة من سمن) قالت: فأخذت الكعب من الإهالة فأدمته به (خلطته عصيده مستساغة). قالت: فكان ذلك طعام رسول الله ﷺ وطعام أهله (زوجه) ليلة عرسه (الطبقات الكبرى: ٨/ ٦٤).

بها إلى ضرتها حفصة التى كانت تتخذها فى مثل هذه الأمور صاحبة لها، فهوّنت عليها حفصة خطر جمال أم سلمة، وقالت لها:

إنها ليست كما تقولين، وإنما هى الغيرة.

وعاشت أم سلمة فى دار الرسول إلى جانب زوجاته اللاتى سبقنها إلى بيت الرسول واللاتى وفدن إليه من بعدها، وهى محتفظة ـ بفضل ذكائها وقوة شخصيتها ـ بمكانتها العالية القوية بين زوجاته، متمتعة بتقدير الرسول، وحبه لها.

وكان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ فى بيت عائشة رضى الله عنها فتباهى بذلك ضرائرها، حتى جاءت (أم سلمة بنت زاد الركب) فكان مما أوحى إليه وهو عندها قوله تعالى فى سورة التوبة: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾[1].

وأكملت أم سلمه طريق الجهاد مع رسول الله ﷺ فصحبته فى غزوة خيبر، وفى فتح مكة، وفى غزوة هوازن، وثقيف، وحصار الطائف، ثم فى حجة الوداع سنة عشرة من الهجرة.

وكانت تعد له فى جميع غزواته كل ما يؤمن له الراحة والسكينة، وحضرت أم سلمه مع رسول الله ﷺ غزوة الحديبية، وحضرت هذه الوفود التى كانت تأتى وتذهب بين يدى رسول الله وسادة قريش، سعيًا وراء حقن الدماء التى كان رسول الله حريصا عليها.

وبعد مفاوضات عديدة، أستقر الرأى على توقيع صلح بين المسلمين وقريش، ورأى كثير من المسلمين أن شروط هذا الصلح فيها ظلم للمسلمين.

حتى جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله، وقال له: ألست نبى الله حقًا؟ قال: «بلى».

---

(١)التوبة: ١٠٢.

قال عمر: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟

قال رسول الله: « بلى ».

قال عمر: فلِم نعطى الدنية فى ديننا إذن؟

فقال رسول الله ﷺ:

« إنى رسول الله ﷺ، ولست أعصيه، وهو ناصرى »، وبعد ذلك قال رسول الله لأصحابه: « قوموا فانحروا ثم احلقوا ».

قالها ثلاث مرات... فما قام منهم واحد!!

يقول رسول ﷺ لعمر على مسمع من سائر الصحابة:

إنى رسول الله ﷺ، ولست أعصيه، إشارة منه - عليه الصلاة والسلام - أن ما صنعه أمر من الله، ووحى من السماء.

ومع ذلك عصا القوم رسولهم، من شدة غيظهم، فلم ينفذوا أمره حين أمرهم بالنحر والحلق.

ولما رأى رسول الله ﷺ ما بأصحابه، دخل على زوجته أم سلمة، يشكو لها ما لقى من أصحابه.

قالت أم سلمة: يا نبى الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك.

واستمع رسول الله ﷺ إلى مشورة أم سلمة، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه.

فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً.

كانت هذه مشورة أم سلمة فى مرحلة حرجة وفاصلة فى تاريخ المسلمين، وكانت مشورتها فى مكانها؛ فهى تعلم مدى حب الصحابة لرسول الله، وتعلم أن عدم طاعتهم كان من شدة حبهم لعقيدتهم، وحرصهم على ألا يوقعوا ما

يكون فيه الدنيَّة فى دينهم - كما حسبوا ذلك فى شروط صلح الحديبية - وكانت مشورتها نابعة من معرفتها بانقياد الصحابة لرسولهم، وكان رأيها فى محله، فما إن رأى الصحابة رسولهم ﷺ، يذبح ويحلق حتى بادروا إلى ذلك.

وثاب المسلمون إلى عقولهم بعد أن غلبتهم عليها عواطفهم، فأدركو أى صلح خطير عقد النبى ﷺ وأنه ما فُتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، فلقد دخل فى دين الله بعد (الحديبية) مثل ما كان قبل ذلك وأكثر.

بركة من بركات أم سلمه، الزوجة الصالحة التى كافأها الله على إيمانها بدينها وصبرها على ما لاقت فى سبيله من بلاء، ومن فرط حبها وإخلاصها لزوجها، أن جعلها أما للمؤمنين وسيدة من سيدات المسلمين، تشير على رسول الله ﷺ، فيعمل بمشورتها. وهكذا كانت، رضى الله عنها - فى كثير من المواقف لا تصدر إلا عن نضج وعمق وتفكير.

وعاشت أم سلمه بعد موت الرسول ﷺ، وتقدم العمر بها حتى امتحنت، كما امتحن الإسلام وأمته بمذبحة (كربلاء) ومصرع الإمام الحسين سيد الشهداء وبعض آل البيت على الساحة المشئومة.

وتوفيت أم سلمة رضى الله عنها بعدما جاءها نعى (الحسين بن على رضى الله عنه) فى سنة تسع وخمسين للهجرة، وصلى عليها (أبو هريرة) رضى الله عنه، وشيعها المسلمون إلى البقيع، أم سلمه بنت زاد الركب، آخر من مات من آمهات المؤمنين، رضى الله عنهن.

أم المؤمنين

السيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها

أكرمهن وليا وسفيرًا

زوجها الله لرسوله ﷺ فكان هذا فخراً لها زادها عزاً، وكانت تباهى به صويحباتها زوجات الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وكانت أطولهن يداً فى الصدقة والكرم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ «اسرعكن لحاقا بى أطولكن يداً» (رواه مسلم من حديث عائشة).. وقالت عنها عائشة رضى الله عنها: «ولم أر امرأة قط خيراً فى الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم وأعظم صدقة، وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى يُتصدق به، ويُتقرب به إلى الله عز وجل» (صحيح مسلم: كتاب الفضائل).

هى زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر الأسدى الشابة الشريفة الحسناء، من بنى أسد بن خزيمة المضرى وحفيدة عبد المطلب بن هاشم، أمها (أميمة بنت عبد المطلب) عم النبى ﷺ.

أسلم لمحمد آل بيته، وأسلم له صديقه الحميم أبو بكر، ودعا أبو بكر الناس إلى ما يدعو إليه محمد فدخل فى الإسلام بدعوته جماعة من بنى جحش. كان فيهم إخوة زينب: عبدالله، وعبيدالله، وعبد من عبيدهم، وأسلمت زينب بإسلام إخوتها، وأسلمت معها أختاها: حمنة، وأم حبيبة، فكانوا جميعًا من المسلمين الأولين.

هاجرت زينب إلى المدينة المنورة برسول ﷺ مع من هاجر من أهلها، وكانت قد بلغت سن الزواج، وغدت شابة يتطلع إليها السادة والأشراف، وهى بالإضافة - إلى شرف المحتد - ذات جمال يتحدث به من عرفها من النساء والرجال.

وكان زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ من أقرب الناس إلى قلبه، وما كان (زيد) عبداً بل هو (زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب الكلبى) من بنى زيد اللات، خرجت به أمه (سعدى بنت ثعلبة) لتزور أهلها بنى معن بن طئ فأصابته خيل من (بنى القين بن جسر)، فباعوه فى سوق من أسواق العرب فأشتراه (حكم بن خزام بن خويلد) ابن أخ السيدة خديجة بنت خويلد. وقد وقعت هذه الحادثة قبل الإسلام، ولم يكن زيُد عبداً. ولكن كانت تلك طبيعة الجاهلية، إذ كان القوى فيها يغلب الضعيف، فيسلبه حقه ويستعبده إن شاء أو يبيعه إن أراد، وذات مرة زارت السيدة خديجة ابن أخيها فأهداها زيد لخدمتها. فرآه رسول ﷺ فطلبه منها فوهبته له راضية.

وكان أبوه (حارثة بن شراحيل) قد حزن عليه أشد الحزن، فخرج يبحث عنه فى كل مكان حتى عرف مكانه فى مكة، فانطلق مع أخيه (كعب) قاصدين مكة، وعندما وصلا إلى البيت العتيق، وجدا سيدنا محمد ﷺ هناك، فقالا له:

يا ابن عبد الله، يا ابن سيد قومه، أنتم جيران الله، تفكون العانى، وتطعمون الجائع، وقد جئتك فى ابننا، فتحسن إلينا فى فدائه.

قال: «أو غير ذلك؟».

قالا: ما هو؟.

أجاب: «أدعوه وأخيِّره، فإن اختاركما فذاك، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من أختارنى أحداً».

قالا: قد زدت على النَّصَفة.

ودعا زيد، فعرف أباه وعمه، وخيَّره سيدنا محمد ﷺ

إن شاء ذهب معهما وإن أحب أقام معه.

فاختار سيده!!

وتوسل إليه أبوه: يا زيد، أتختار العبودية على أبيك وأمك، وبلدك وقومك؟.

فتماسك زيد وقال:

إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئًا، وما أنا بالذى أفارقه أبداً.

فعند ذلك أخذه سيدنا محمد ﷺ من يده، وقام على الملأ من قريش فأشهدهم أن زيداً ابنه وارثًا وموروثًا. ومنذ ذلك اليوم عُرف باسم (زيد بن محمد). عند ذلك انصرف الوالد مرتاح النفس، مطمئن القلب على ولده، وبقى زيدُ حتى بُعث محمد نبيًا وكان زيد أول من أسلم مع على بن أبى طالب وأبى بكر الصديق رضى الله عنهم.

وعندما آخى النبى ﷺ بين أصحابه المهاجرين، كان زيد وحمزه بن عبد المطلب الهاشمى، أخين.

فلما بلغ (زيد) سن الزواج، اختار له الرسول زينب بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب، اختار له الرسول ﷺ شريفة من شريفات مكة وسيدة من سيدات المجتمع الرفيع.

فكرهت زينب وكره أخوها (عبدالله بن جحش) هذا الزواج لأن زيداً عبد في رأيهما. فحدثهما الرسول عن مكانة زيد في الإسلام وعن أصله العربي، وكان الرسول يهدف من زواج زيد بزينب أن يهدم الفوارق الطبقية وبعض المعتقدات التي كانت سائدة في الجاهلية، وأن يضع الأساس لإقامة المساواة الاجتماعية بين المسلمين. إن الرسول بهذا الزواج يود أن يوضح للعرب أنه ليس بين الناس عبيد وسادة، وأن يزيل كل ما كان يقيمه العرب من فواصل بين الأشراف والموالي، بين الأغنياء والفقراء، وأن يكون جميع الناس في الإسلام سواسية.

لم تقبل زينب وأخوها عبدالله هذا الزواج حتى نزلت الآية الكريمة:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾[1].

عندئذ عرفت زينب وأخوها وأهلها أن زواج زينب من زيد هو قضاء الله وإرادة رسوله، فأذعنت زينب لهذا، وذهب أخوها واعتذر للرسول عن رفضه في بادئ الأمر. بهذه الصورة تم الزواج وتم للرسول ما أراد، وتحطمت الفوارق وأصبح العبد الذي ينظرون إليه النظرة الحقيرة صهراً لبني هاشم وسادات قريش وصديقا لأكرم رسول، وذا مكانة تتقاصر عنها أعناق السادة.

لكن حياة الزوجين لم تَصْفُ لهما، فما نسيت (زينب) قط أنها الشريفة التي لم يجر عليها رِقّ، ولا تخيلت أبداً أنها ستكون في يوم من الأيام زوجة لمولى.

---

(١) الأحزاب: ٣٦.

وقاسى زيد من معاملة زينب القاسية له، وصدها له باستمرار، مما جعله يشتكى إلى النبى ﷺ، فكان الرسول يوصيه بمزيد من الصبر والاحتمال، ويقول له:

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾[1].

وعندما حدثها النبى، عن زيد وحبه له، وتقدمه بالإسلام وإخلاصه لله ورسوله قالت زينب:

يا رسول الله... لا أرضاه لنفسى وأنا أيم قريش.

فقال لها رسول الله ﷺ: «فإنى قد رضيته لك».

وأذعنت زينب لأمر رسول الله ﷺ ، وأذعن بنو جحش لأمر الله ورسوله، وعرف الناس أن هذا الزواج بأمر السماء.

ولكن لم يقدر الله لهذا الزواج أن يتآلف... فزينب بنت جحش تزوجت بزيد امتثالاً لأمر الله ورسوله، وزيد يشعر بأن زوجته لا تُكِنُّ له حبًا، وأن زواجها منه رغمًا عنها.

كان هذا الإحساس يعذبه ويؤنبه، فكان يود إنهاء هذا الزواج، وكان يفضى بمكنون قلبه لرسول الله ﷺ وفى كل مرة يقول له الرسول:

«أمسك عليك زوجك».

واستمر الشقاق بينهما مدة من الزمن حتى هجرت زينب زيداً فطلقها، وكان السبب الرئيسى للطلاق، هو إحساس زينب بعلّو نسبها.

أراد الرسول أن يتزوجها، ولكنه تذكر أنه قال لقريش أن زيد ابنه فكيف يعقل أن يتزوج مطلقته؟

وفى الحقيقة هو ليس بابنه ولكنه قد تبناه. ولكن كان العرب يجعلون للمتبنى مثل حقوق الابن.

---

(١) الأحزاب: ٣٧.

فآثر الرسول أن يكتم رغبته ـ ومرة بينما كان الرسول مع عائشة نزل عليه الوحى ثم تبسم وقال:

«من يذهب إلى زينب ويبشرها بأن الله أمرنى بأن أتزوجها»! وتلا عليه الصلاة والسلام ما أنزل عليه من الوحى ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾[1] وزيدُ هذا هو الصحابى الوحيد الذى ذُكِرَ اسمه فى القرآن:

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾[2].

وقد لّمح القرآن إلى بقية الصحابة بآيات تنبئ بالمقصود بغير ذكر لاسمه، مثال ذلك: ﴿ ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ ﴾[3] والمقصود هنا سيدنا أبو بكر الصديق.

وكان زيد يُدعى: زيد بن محمد حتى نزلت الآية:

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ ۝٤ ﴾[4].

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾[5].

ومن ذلك الحين دعى زيد بن حارثة، وبزواج الرسول من زينب انهدم جانب هام من معتقدات الجاهلية وهو أن (المتبنى) ليس ابنًا حقًا، وأن زواج زوجة المتبنى يَحِقُّ بعد موت زوجها أو طلاقها منه لمتبنيه.

عاتب الله الرسول، لأنه أخفى رغبة فى نفسه ألا وهى الزواج من زينب، وذلك حفاظًا على تقاليد الناس وخوفًا من أقاويلهم. ولم يرض له الله أن

(١، ٢) الأحزاب: ٣٧

(٣) التوبة: ٤٠.

(٤) الأحزاب: ٤٠.

(٥) الأحزاب: ٥.

كانت العروس يوم تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم في السنة الخامسة على أرجح الأقوال، بنت جحش [illegible] وكان اسمها (برّة) فسماها صلى الله عليه وسلم زينب، وفي الصحيحين حديث زينب بنت أبي سلمة، ربيبة النبي صلى الله عليه وسلم قالت رضي الله عنها: «كان اسمي برّة، فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب، ودخلت عليه [illegible] جحش واسمها برّة، فسمّاها زينب» (٢)

يخفى فى نفسه ما الله مبديه، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه، وصل الخبر لزينب فقامت تصلى وتسجد لله شاكرة، وتزوجها الرسول فكانت تقنت لربها شاكرة، وكان وليمة العرس فخمة. وكانت تتفاخر على نساء النبى بجمالها وشرفها وتقول:

(إنى والله ما أنا لأحد من نساء رسول الله. زوجهن أهلهن، وزوجنى الله من فوق سبع سمٰوات وأنزل فيّ قرآنًا يقرأه المسلمون لا يُبدلّ ولا يُغيّر).

وعاشت زينب فى كنف الرسول ﷺ، وكانت تقيَّة واصلة للرحم، خاشعة متضرعة، وشغلت وقتها بعد العبادة برعاية الفقراء والمساكين، فقد كانت زينب امرأة صنّاع، تجيد صناعة الدباغة والخرز، فكانت تدبغ وتخرز وتتصدق بكل ذلك فى سبيل الله.

وقد بلغ من إحسانها أنه حينما أرسل لها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نصيبها الذى خصّصه لمعيشتها كإحدى زوجات الرسول، وزعته فى حينه على الأيتام والأرامل وذوى الحاجة.

فلما بلغه ذلك قال: إنها امرأة يُراد بها الخير. وأرسل لها ألفا أخرى لتستبقيها لنفسها، فكان أن وزّعتها كذلك.

ثم إن زينب - رضى الله عنها وأرضاها - وكذلك أمهات المؤمنين، كن يحرصن كل الحرص على القرب من رسول الله ﷺ حيًا وميتًا، يتنافسن فى ذلك ويبالغن فى التنافس.

وعندما توفى النبى ﷺ، كانت نساؤه يجتمعن ثم يتذارعن، تقيس المرأة منهن ذراع الأخرى ليعرفن أيهن أطول باعا، وأيهن أسرع بلحوقها برسول الله ﷺ، وأيهن أسعد بذلك.

وكان أول من لحق به من نسائه ﷺ، أم المؤمنين زينب بنت جحش، ولم تكن زينب أطولهن ذراعا، ولكنها كانت أطولهن باعا فى الصدقة، أى أكثرهن تصدقا.

(١) الإصابة، الواقدي: ٨ / ٩٣، وعيون الأثر: ٢ / ٣٠٤

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم، صحيح مسلم ٣ / ١٦٨٧ - ١٢٢ : ح (٢١٤٢) هج (اللؤلؤ والمرجان ٣ / ٤٧).

وعندما توفيت كانت فى عامها الثالث بعد الخمسين، وقد أوصت بأن تُحمل إلى قبرها على سرير النبى ﷺ والذى لم يُحمل عليه سوى سيدنا أبو بكر الصدِّيق رضى الله عنه، فحُملت عليه، وكانت وفاتها سنة عشرين من الهجرة، وقد صلى عليها أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) ودُفنت بالبقيع فى المدينة.

وقد حزنت عليها نساء النبى حزنًا شديداً، وقالت عنها عائشة (لقد ذهبت حميدة تقيّةً.. مفزع اليتامى والأرامل..).

رضى الله عنها وعن كافة نساء النبى صلوات الله وسلامه عليه.

أم المؤمنين
السيدة جويرية بنت الحارث الخزاعية
(سيدة بنى المصطلق)
رضى الله عنها

كان زواجها من رسول الله ﷺ فضلاً وبركة نزلت على قومها أجمعين فآمنوا، فأنجاهم الله من الأسر والرِّق، وشرَّفهم بالنسب النبوى الكريم حتى قالت عنها عائشة : لا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها.. رضى الله عنها وأرضاها.

(السيرة والاستيعاب والإصابة).

هى (جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار المصطلقية الخزاعية).

ما كاد المسلمون يأوون إلى بيوتهم فى الصبح، بعد أن أفاء الله عليهم وعلى رسوله بالنصر على الأحزاب.

وقد أجهدتهم غزوة الخندق، فما انتصف النهار حتى تناهى إلى أسماعهم صوت مؤذن النبى ﷺ يؤذن فى الناس:

(من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قُريظة) واستأنفوا القتال، وحاصروا يهود بن قريظة خمسا وعشرين ليلة قبل أن يتم التسليم.

وكان هذا هو القصاص العادل بعد أن نقض اليهود عهد الموادعة، وجهروا بالخيانة والغدر.

بعدها كانت غزوة بنى لحيان، وغزوة ذى قرد. وعاد النبى ﷺ إلى المدينة فما كاد يقيم بها شهراً وبعض شهر، حتى بلغه أن بنى المصطلق - وهم حى من خزاعة - يجمعون الجموع لقتاله، بقيادة زعيمهم (الحارث بن أبى ضرار بن حبيب المصطلقى الخزاعى).

فخرج إليهم ﷺ ومعه من نسائه (عائشة بنت أبى بكر) حتى لقيهم على ماء يُقال له المريسيع، فكان قتال انتهى بهزيمة بنى المصطلق.

وسيقت نساؤهم سبايا، وفيهن (بّرة بنت الحارث بن أبى ضرار بن حبيب) سيد القوم وقائدهم، أو (جويرية) كما سماها ﷺ.

وقفل راجعا إلى المدينة. وكانت (بّرة) قبل أن تُسبى زوجة (لمسافع بن صفوان المصطلقى) ابن عم لها، قُتل يوم المريسيع.

ووقعت بّره عند تقسيم السبايا فى نصيب (ثابت بن قيس)، فأرادت أن تتخلص من الأسر وأن تفتدى نفسها من ثابت، ولكن ثابتا ساومها، وأغلى عليها الفداء، وبالغ فيه مبالغة شديدة، فرأت أن تلجأ إلى رسول المسلمين تستنجد به فى محنتها، وتستعدى به على ثابت.

فبينما هو جالس يومًا فى حجرة عائشة، سُمعت امرأة تستأذن فى لقائه ﷺ.

وقامت عائشة إلى الباب، لترى من تلك، فإذا شابة حلوة، فاتنة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فى نحو العشرين من عمرها، ترتجف قلقًا وذعراً، وقد زادها انفعالها حيوية وجمالاً.

وعرفت عائشة أنها سبيّة من سبايا بنى المصطلق، وأنها جاءت إلى رسول الله فى أمر من أمورها.

وكرهت عائشة (برّة) لأول ما رأتها، وكرهت ـ وقد علمت أنها أَمَة ـ أن تدخل على الرسول فيرى فيها ما رأت هى (فقد كان الرسول لا ينظر إلى المرأة عندما يخاطبها إلا إذا كانت أمة).

ودخلت الشابة المليحة فقالت فى ضراعة تمازجها عزّة:

(يا رسول الله، أنا بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت فى السهم لثابت بن قيس، فكاتبته على نفسى، فجئتك أستعينك على أمرى).

ورقّ قلبه ﷺ للعربية الخزاعية، بنت سيد بنى المصطلق، فى موقفها ببابه ضارعة إليه، وتحرّك فى نفسه ما عرِف عنه من النجدة والنخوة والكرم، وقال لها:

«فهل لكِ فى خير من ذلك؟».

قالت: وما هو؟

قال: «أقضى عنك كتابتك وأتزوجك».

فتألق وجهها الجميل بفرحة الغبطة، وقالت وهى لا تكاد تصدق أنها نجت من الضياع والهوان: (نعم يا رسول الله!).

قال النبى ﷺ: «قد فعلت».

وانصرفت (برّة) من حضرة الرسول بنفس راضية مطمئنة، حتى يقضى رسول الله عنها كتابتها، ويؤدى ثمن خلاصها.

ولم يهدأ بال الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق منذ أن أُخذت ابنته (برّة) أسيرة فى أيدى المسلمين، فراح يفكر ويدبر ويعمل على فدائها واستردادها بأسرع ما تُمكنّه من ذلك ظروفه وموارده، وعلى ذلك سار الحارث إلى المدينة ومعه فداء ابنته، فلما كان بالعقيق، نظر إلى الإبل التى جاء بها للفداء، فرغب فى بعيرين منها، فغيّبهما فى شِعب من شعاب العقيق، ثم أتى النبى ﷺ وقال:

يا مُحمّد، أصبتم ابنتى وهذا فداؤها.

فقال الرسول: «فأين البعيران اللذين غيّبتهما بالعقيق؟».

فدُهش الحارث أشد الدهشة لمعرفة الرسول بما كان منه، ولم يستطع إلا أن يهتف مسلمًا:

أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك مُحمّد رسول الله حقًا، فوالله ما أطلعّ على ذلك إلا الله!

وهكذا أسلم الحارث بن أبى ضرار سيّد بنى المصطلق الذى كان يُجمّع جموع العرب لمحاربة مُحمّد والقضاء عليه، كما أسلم معه ابنان له.

وأرسل الحارث فأتى بالبعيرين ليفدى ابنته قائلاً للرسول:

هذا فداء ابنتى، فإن ابنتى لا يُسبى مثلها، فخل سبيلها.

فقال الرسول: «أرأيت إن خيرّتها، أليس قد أحسنت؟».

قال الحارث: بلى.

فأتاها أبوها فذكر لها ذلك، فقالت: اخترت الله ورسوله.

وأسلمت (برّة)، وأعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها وسمّاها (جويرية) كراهة أن يُقال: خرج من عند برّة.

وهكذا نالت جويرية الشرف الذى لم تكن تظن أنه سيؤاتيها وحظيت بنعمة الدنيا والآخرة.

وعلم المسلمون بزواج الرسول من جويرية، فقالوا: عما كان بأيديهم من أسرى: أصهار رسول الله يسترقون..؟! ولم يلبثوا جميعًا أن أعتقوا ما أصابوا من سبى بنى المصطلق، فبلغ ما أعتقوا مائة أهل بيت منهم، حتى قالت عائشة عن جويرية:

لا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها.

وظلت (جويرية) ما عاشت، تبارك تلك اللحظة السعيدة التى لقيت فيها النبى ﷺ، فنجت فيها من العار، وأعتقت قومها من الأسر، وكُرِّمت بالزواج من سيّد البشر.

ولم تستطع جويرية أن تنضم إلى الحزب الراجح من حزبى زوجات الرسول الذى يضم الزوجة الحبيبة عائشة، المقرّبة إلى قلب النبى، فانضمت إلى حزب زوجات الرسول الذى كانت تترأسه أم سلمة، إلا أنها لم تكن لتبتعد عن عائشة إذا ما حزَب زوجات الرسول أمر مشترك، فقد صاحبت عائشة وحفصة وزينب بنت جحش، عندما ذهبن إلى دار حارثة بن النعمان متنقبات متخفيات لمشاهدة ضرتهن الجديدة (صفية بنت حُيى بن أخطب) عقيلة بنى النضير، التى تزوجها النبى، ووفد بها إلى المدينة، وأنزلها أول ما أنزل بدار حارثة.

ولما رأت عائشة ما عليه الزوجة الجديدة من الملاحة والجمال ثارت غيرتها، وتحدثت إلى صاحباتها قائلة:

ما أرى هذه الجارية إلا ستغلبنا عند الرسول..!

سارعت جويرية تقول بلهجة الخبير الواثق تطمئن عائشة، وتحد من غيرتها، وتهوّن عليها الأمر:

كلا! إنها من نساء قلّما يحظين عند الأزواج.

وعاشت جويرية ببيت الرسول عيشة رضيّة هانئة، وكانت رضوان الله عليها، كثيرة العبادة، حتى لكان الرسول يخرج من بيتها عند صلاة الفجر ويتركها وهى تصلى وتتعبد، ثم يمر عليها إذا ما ارتفع الضحى فيجدها كما

تركها؛ تصلى وتتعبد، فيحمد الرسول منها ذلك، ويُقبل عليها يُرشدها بما تستطيع به أن تُشبع رغبة نفسها فى العبادة وتسبيح الله.

ويُروى عنها فى ذلك أنها قالت[1]: أتى علىّ رسول الله ﷺ، غدوة وأنا أسبّح ثم انطلق لحاجته، ثم رجع قريبًا من نصف النهار، فقال: ما زلت قاعدة؟ قلت: نعم، قال: ألا أعلمك كلمات لو عدلن بهن عدلتهن، ولو وزن بهن وزنتهن، يعنى بجميع ما سبحت:

سبحان الله عدد خلقه ثلاث مرات.

سبحان الله زنة عرشه ثلاث مرات.

سبحان الله رضاء نفسه ثلاث مرات.

سبحان الله مداد كلماته ثلاثة مرات.

ويروى عنها رضوان الله عليها[2]: أن النبى ﷺ دخل عليها يوم جمعة، وهى صائمة، فقال لها: أصمت أمس؟ قالت: لا قال: أتريدين أن تصومى غداً؟ قالت: لا. قال: فافطرى.

وتمتد الحياة بأم المؤمنين (جويرية) بعد وفاة رسول الله ﷺ، حتى تلقى ربها فى ربيع الأول سنة ست وخمسين، والأمر مستقر لمعاوية بن أبى سفيان، وصلى عليها مروان بن الحكم؛ أمير المدينة، وهى يومئذ ابنة خمس وستين، ودُفنت بالبقيع، بجوار من سبقها من أمهات المؤمنين.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده: ٦/ ٣٢٥.

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الصوم باب صوم يوم الجمعة، وأبو داود فى الصوم ٢٤٢٢؛ وأحمد فى مسنده: ٦/ ٤٣٠ ويوم الجمعة كيوم العيد فى حرمة صومه إلا أن صوم يوم الجمعة تزول حُرْمته إذا صيم يوم قبله أو يوم بعده.

أم المؤمنين
السيدة صفية بنت حُيَىّ
(عقيلة بني النضير)
رضى الله عنها

اصطفاها رسول الله ﷺ بعد هزيمة قومها اليهود، وهى ابنة زعيمهم، وألقى عليها رداءه وأدخلها فى كنفه، فكان هذا رمزاً لسعة هذا الدين وبرّه بغير المسلمين.

(السيرة النبوية وانظر صحيح مسلم).

هى (صفية بنت حُيَىّ بن أخطب) عقيلة بنى النضير، التى ينتهى نسبها إلى هارون أخى موسى عليهما السلام، وأمها (بّرة بنت سموأل القرظية) إخوة النضير.

لم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة من عمرها، ورغم صغر سنها، تزوجت مرتين. تزوجت أولاً من فارس قومها وشاعرهم (سلام بن مشكم القرظى) ثم خلف عليها (كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق) صاحب حصن (القموص) أعز حصن فى خيبر، وصاحب كنز اليهود (أى المتولى أمر أموالهم والمؤتمن على حُليّهم).

وقد فتح المسلمون الحصن بعد نضال عسير، وجئ بكنانة حيًا، وسأل النبى ﷺ كنانة بن الربيع عن أموال اليهود وذهبهم اللذين حملهما بنو قينقاع وبنو النضير معهم عندما غادروا المدينة، فأنكر كنانة وجودهما قائلاً:

يا مُحمّد، أنفقناها فى حربنا فلم يبق منهما شىء.

فقال النبى: برئت منكم ذمة الله، وذمة رسوله، إن كان عندكم شىء من أموالكم وذهبكم!

أجاب كنانة: نعم.

وقال النبى: أرأيت إن وجدناه عندك، أقتلك؟

قال كنانة: نعم.

فأشهد النبى طائفة من اليهود، وطائفة من المسلمين على ذلك.

ثم أمر بالبحث عن أموال اليهود وذهبهم اللذين أنكر كنانة وجودهما، وأقسم عليه.

واكُتشف كنز اليهود وقد خبأه كنانة فى خربة من خربات خيبر، وبذلك حلّ دم كنانة للمسلمين، فدفعه النبى ﷺ إلى (محمد بن مسلمة الأنصارى

البدرى) فضرب عنقه بأخيه (محمود بن مسلمة) الذى قتله اليهود فى أول المعركة عند حصار حصن ناعم، ألقوا عليه رحى فقتلته.

ففى محرم سنة سبع هجرية، تهيأ النبى ﷺ لحرب اليهود، بعد أن كشفت موقعة الخندق عما ينطوون عليه من حقد مرير، وما يُبيّتون للإسلام من شر وغدر.

وخرج النبى ﷺ فى النصف الثانى من محرم إلى معقل اليهود (خيبر) فلما أشرف عليها هتف قائلاً:

«الله أكبر، خربت خيبر! إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

وخربت خيبر كما تنبأ الرسول..!

فقد سقطت حصونها بعد قتال عنيف شديد حصنًا بعد حصن فى أيدى المسلمين، واستولى المسلمون على ما بالحصون من عتاد ومؤن وسلاح، ووقع فى أيديهم ما كان فيها من نساء وأطفال سبايا لهم وأسرى، وفى مقدمتهن عقيلة بنى النضير (صفية بنت حيى) وابنة عم لها، يقودهما (بلال) مؤذن النبى ﷺ.

ومرّ بهما بلال على ساحة امتلأت بالقتلى من يهود، فهمّت صفية أن تصيح، لكن الصيحة احتبست فى فاها لا تنطلق.

وأما ابنة عمها فصرخت، ولطمت وجهها، وحثت التراب على رأسها.. وجئ بهما إلى رسول الله ﷺ.

(صفية) فى حزنها الصامت، تحاول أن تتماسك فى ترفع وكبرياء، تكتم شعورها، وتبكى فى سكون وصمت، والأخرى شعثاء الشعر معفرة التراب، ممزقة الثياب، وتولول وتنوح.. فأشاح بوجهه عن هذه الناحية النادبة وقال:

«أغربوا (أى ابعدوا) عنى هذه الشيطانة».

فأبعد المسلمون ابنة عم (صفية) من حضرة رسول الله، أما (صفية) فقد أمر النبى فحيزت خلفه، وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أن النبى قد اصطفاها لنفسه.

وعلم الرسول بما كان من بلال، حين مرّ بالفتاتين على قتلى قومهما.. فاستنكر منه هذا الفعل، وقال له:

«أنُزعت منك الرحمة يا بلال..! حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟!».

فقال بلال معتذراً: يا رسول الله، ما ظننت أنك تكره ذلك، فأحببت أن تريا مصارع قومهما!

وأمر النبى بعد ذلك بابنة عم صفية لتكون من نصيب دحية الكلبى.

وترفق الرسول باليهود، وأكرمهم بعد استسلامهم، وكان من ترفقه بهم أن عاملهم بالحسنى، ورد إليهم صحائف من التوراة كانت فيما غنم المسلمون، وأرسل من يأتى بصفية بنت حُيَىّ بن أخطب ليكرمها ويكرم فيها قومها، فخيّرها ﷺ، قائلاً لها:

«اختارى، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسى، وإن اخترتِ اليهودية فعسى أن أعتقك، فتلحقى قومك».

قالت صفية: يا رسول الله، لقد هويت الإسلام، وصدقت بك قبل أن تدعونى حيث صرت إلى رحلك، وما لى فى اليهودية إرب (حاجة)، وما لى فيها والد ولا أخ، وخيّرتنى الكفر والإسلام، فالله أحبّ إلىّ من العتق وأن أرجع إلى قومى، فأعتقها ﷺ، وتزوجها، وكان عتقها صداقها.

وانتظر ﷺ بخيبر حتى هدأت المناحة، وظن أن الروع قد ذهب عن (صفية) أو كاد، تقدم رسول الله إلى صفية فقدّم إليها البعير لتركب، وثنى لها رجله لتضع قدمها على فخذه مساعدة لها على الركوب، فأبت صفية أن تضع قدمها على فخذ رسول الله، ووضعت ركبتها بدلا من قدمها.

وعلى بُعْد ستة أميال من خيبر حط النبى يبغى الزفاف بعروسه، ولكنها تمنّعت وأبت عليه أن يفعل.

فوجدها ﷺ فى نفسه، وشقَّ عليه تمنُّعها، ثم استأنف سيره راجعًا بعسكره إلى المدينة، فلما كان «بالصهباء» ـ بعيداً عن خيبر ـ نزل هناك يستريح، فبدا له أن صفية متهيئة للعرس، جهّزتها له أم سليم (أم خادمه أنس بن مالك)، ومعها بعض النسوة، فلما فرغن من تزيينها وتمشيطها كانت صفية بشهادة ما شطاتها من أضوأ النساء وأجملهن.

ودخل النبى على عروسه فوجد عندها سروراً به، وبشاشةً له، وأحس منها حفاوة وائتناسًا به، فسألها:

«ما حمَّلك على إبائك فى المنزل الأول؟».

أجابت العروس من فورها: خشيت عليك قُرْب يهود فزال ما كان يجد فى نفسه من جفوة.

وبهذا الجواب عظمت صفية فى عين الرسول، وحازت رضاه وإعجابه فأقبل عليها يحدثها مسامراً مؤنسًا، مهوّنًا عليها ما يكون بنفسها من أثر لما أصاب قومها.

وتسترجع صفية ذكريات لها مع الزوج المصطفى عن إرهاص أهلها اليهود بنبى منتظر، يعرفونه من أسفارهم، ثم حقدهم وغيظهم، ثم استقبلت يثرب النبى المهاجر، الذى طالما بشّرت يهود بقرب مبعثه، تستغل البشرى لحماية ثروتها بيثرب من غاز وطامع، أو تتفاخر بها على العرب الأُميين، فيما تتفاخر من علمها بالكتاب.

تقول صفية بنت حيىّ بن أخطب:

كنت أحب ولد أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر، لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذانى دونه. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل بقباء، غدا عليه أبى وعمى قبل شروق الشمس فلم يرجعا حتى كانا مع غروبها، فأتيا كالّين،

كسلانين، ساقطين، يمشيان الهوينى، فهششت إليهما، كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما، لما بهما من الغم..! وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى حُيَىّ بن أخطب: أهو هو؟!

فيجيب أبى: نعم والله!

فيسأل عمى: أتعرفه وتثبته؟!

فيقول أبى: نعم.

فيقول عمى: فما فى نفسك منه؟

فيجيب أبى: عداوته والله ما بقيت.

فلما ذكرت ذلك عن أبيها، قال ﷺ:

«لم يزل أبوك من أشد اليهود عداوة لى حتى قتله الله»[1].

قالت صفية: يا رسول الله! إن الله يقول فى كتابه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2].

ولاحظ النبى ما حول عين صفية من زُرقة.. فسألها عنها، فقالت: إنها فى ليلة عرسها بكنانة بن الربيع (زوجها السابق)، رأت فى المنام أن قمراً وقع فى حِجرها، فلما صحت من نومها عرضت رؤياها على كنانة، فقال غاضبًا:

«ما هذا إلا أنك تُمنين ملك الحجاز محمداً».

ولطم وجهها لطمة ما يزال أثرها فيه.

وقد سرّه ﷺ ما سمع من حديثها، ومرت ليلة عرس الرسول بصفية كأحسن ما تمر الليالى، وأولم الرسول للناس على صفية بالحيس (وهو طعام من التمر والسمن والدقيق) ودعاهم فأكلوا فرحين بفرحة زفاف الرسول.. وبفرحة انتصارهم على اليهود.

---

(١) الحوار بنصه فى الطبقات الكبرى (٨/ ٨٧، ٨٨).

(٢) الأنعام: ١٦٤.

وهناك خارج الخيمة التى دخل فيها ﷺ على صفية، بات رجل من الأنصار هو أبو أيوب خالد بن يزيد الأنصارى، وقد بات يطوف بالخيمة، متوشحًا سيفه، فسأله النبى:

«مالك يا أبا أيوب؟!».

أجاب رضى الله عنه:

يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة، قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك.

فيقال أن الرسول دعا لأبى أيوب بقوله

«اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى».

أو قال: «رحمك الله يا أبا أيوب» مرتين.

ولم يكن المسلمون قد نسوا بعد الفعلة الشنعاء لامرأة أخرى من يهود خيبر هى (زينب بنت الحارث) امرأة سلام بن مشكم، أحد قادة اليهود.

دخلت زينب على الرسول ﷺ، وهو مطمئن بعد أن استسلم اليهود لمصيرهم، ووقعوا الصلح مع النبى ﷺ، فأهدت إليه شاة مسمومة، وكانت قد سألت بعض أصحابه: أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله؟

فلما قيل لها: الذراع، أكثرت السُّمّ فى الذراع حتى سرى منها إلى سائر الشاة.

ووضعتها بين يدى النبى ﷺ، وكان معه صاحبه (بشر بن البراء) فتناول النبى ﷺ الذراع، وأعطى ابن البراء قطعة أخرى أكلها غير مستريب.

لكن النبى ﷺ لم يسغ الذراع، بل لفظها وهو يقول: «إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم».

ودعا بامرأة سلام، فاعترفت بأنها سمّت الشاة متعمدة، ولما سألها النبى ﷺ، عما حملها على فعل ذلك؟

ردت:

(بلغت من قومى ما لا يخفى عليك، فقلت: إن كان نبيًا فسيُخبر، وإن كان ملكًا استرحت منه).

فتجاوز عنها ﷺ، ومات (بشر بن البراء) رضى الله عنه، من أكلته التى أكلها.

فلعل (أبا أيوب الأنصارى) ذكر هذه الفعلة اليهودية، حين بات ساهراً حول الخيمة التى دخل فيها ﷺ على (صفية) عقيلة بنى النضير.

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أنزل صفية فى بيت من بيوت حارثة بن النعمان (حتى يبنى لها بيتًا حول المسجد)، ويأمن وخز الغيرة فى نفوس زوجاته.

وتسامعت نساء الأنصار بجمال صفية ووضاءتها، فتوافدن إلى دار ابن النعمان يشاهدنها مُعْجبات، ومن بينهن أربعا من أزواج النبى ﷺ: عائشة، وحفصة، وزينب بنت جحش، وجويرية يدخلن منقبات ينظرن مع النساء إلى ضرتهن الجديدة.

وانتظر النبى ﷺ حتى خرجت عائشة فأدركها وقال: «كيف رأيت يا شقيراء؟».

فأجفلت عائشة، وقد هاجت غيرتها، ثم هزت كتفها وهى تقول: رأيت يهودية!

فرد عليها النبى ﷺ: «لا تقولى هذا يا عائشة فإنها قد أسلمت وحسّن إسلامها».

وانصرفت عائشة عائدة إلى بيتها تصحبها ضرائرها، وهى لا تستطيع أن تمنع نفسها من التحدث إليهن عن جمال صفية وتقول:

ما أرى هذه الجارية إلا ستغلبنا عند رسول الله..!

فتقول لها جويرية مطمئنة: كلا! إنها من نساء قلّما يحظين عند الأزواج.

ثم انتقلت (صفية) إلى دور النبى، وفى عزمها أن تسالم زوجاته ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

فأسعفتها لباقة طبعها، وواتاها حذرها الموروث أن تتقرب من الحزب الراجح من زوجات الرسول الذى يضم عائشة الزوجة المحببة إلى قلب النبى، وحفصة وسودة، فتظهر استعدادها للانضمام بهما، وفى نفس الوقت قررت أن تكسب ودّ الحزب الآخر الذى يضم الزوجات الأخريات تقف معهن السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهن.

فأهدت إلى الزهراء حُلية لها من الذهب.. إبرازاً لمودتها، وإعلانًا لمسالمتها.

ولعل صفية أرادت أن تحتمى بهذا الموقف اللبق، مما كانت تخاف من التعريض بأصلها اليهودى، وتذكيرها بما بين قومها والإسلام من عداء مُستحكم.

ولم يعصم (صفية) مما كانت تخاف تقرّبها من عائشة وحفصة، فما أكثر ما سمعت التعريض جهراً وتلميحًا بالدم اليهودى الذى يجرى فى عروقها؟! ولم تستطع زوجات النبى أن يتغاضين عن هذا الأصل عندما يغضبن عليها، أو يتشاحنّ معها.

ووجدت صفية عند النبى خير حامٍ لها من إيذاء ضرائرها، وخير مدافع عنها إذا ما نلن من أصلها.

فعندما تشاحنت عائشة وحفصة معها ذات يوم، وتفاخرتا عليها بقولهما: نحن أكرم على رسول الله منها، نحن أزواجه وبنات عمه..!!

وشكت صفية إلى رسول الله ما لقيت منهما، وما قالتا عنها، وقد آلمها ذلك وأبكاها.

فقال لها الرسول مطيّبًا لخاطرها:

«ألا قلت: وكيف تكونان خيراً منى، وزوجى مُحمّد، وأبى هارون، وعمى موسى؟!».

كان النبى ﷺ يحس غربة صفية فى دوره بين نسائه فيدافع عنها كلما أُتيحت له فرصة.

حج الرسول بأزواجه، وبينما هم بطريق العودة من مكة إلى المدينة اعتلَّ بعير (صفية)، فبرك بها، وعاقها عن مصاحبة الركب فبكت.

وعلم النبى بما حدث، فجاء إلى صفية يمسح دموعها بيده، ويهوّن عليها الأمر.

وكان فى إبل زينب فضل، فقال لها النبى ﷺ:

«إن بعير صفية اعتل، فلو أعطيتها بعيراً؟».

أجابت فى ترفع وازدراء:

(أنا أعطى تلك اليهودية؟).

فولى عنها مغضبًا، وتركها شهرين أو ثلاثة لا يقربها، أو قيل: (فهجرها لذلك ذا الحجة، والمحرم، وبعض صفر، حتى كادت زينب أن تيأس من عفوه عنها ورضائه عليها، ثم أتاها بعد، وعاد إلى ما كان عليه معها).

وظل النبى يظلل صفية برعايته، ويشملها بعنايته، حتى آخر لحظات حياته.

رُوى أن أمهات المؤمنين اجتمعن حول فراش الرسول ﷺ فى مرضه الأخير، فقالت صفية: أما والله يا نبى الله لوددت أن الذى بك فىّ..!

فما كان من أزواجه إلا أن غمزن ببصرهن من قول صفية، فإذا النبى يقول لهن: «مضمضن».

تساءلن فى دهشة: من أى شىء.

قال: «من تغامزكن بها. والله إنها لصادقة».

ولحق المصطفى بربه الكريم، فأنهى الموت ما كان قائمًا بين زوجاته من تشاحن وغيرة وتنافس، فلم يُعرف أن (صفية) قد أوذيت فى نسبها، أو طُعنت فى أصلها من زوجات الرسول بعد ذلك.

إلا ما كان من فرية افترتها عليها جارية لها. إذ أتت هذه الجارية إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقالت: (يا أمير المؤمنين إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود) فبعث عمر إلى صفية يسألها عن ذلك فأجابت:

أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلنى الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لى فيهم رحمًا، فأنا أصلُها.

ثم أثنت إلى جاريتها فسألتها عما حملها على مثل ذلك الافتراء، فأجابت الجارية: الشيطان!

فقالت لها صفية: اذهبى، فأنت حرة.

أما ذوو الرحم من صفية، فقد ظلت تصلهم ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً لا تحس لذلك حرجًا، ولا ترى أن يُتخذ من ذلك منفذاً للطعن فى حُسْن إسلامها، حتى إنها أوصت لابن أخت لها يهودى بمبلغ من المال، ورفض ذوو الشأن أن يعطوه المال ليهوديته، فلما سألوا عائشة فى ذلك - وكانوا كثيراً ما يستفتُونها ويستفهمونها فى مثل هذه الأمور - قالت لهم:

(اتقوا الله واعطوه وصيته).

وكان من صلاح صفية أن تصدقت بدار لها قبل أن تموت وكان من مروءتها ونجدتها أنها حاولت أن ترد الثائرين عن خليفة المسلمين عثمان بن عفان.

حدّث مولى لصفية يُدعى كنانة - وقيل هو ابن أخيها - قال:

«قدمت صفية، فى حجابها، على بغلة لتردّ عن عثمان، فلقينا الأشتر - هو النخعى (من وجوه الثائرين) - فضرب وجه البغلة، وهو لا يعرف راكبتها، فقالت لى صفية:

رُدّنى لا تفضحنى!

ثم وضعت معبراً بين منزلها ومنزل عثمان، فكانت تنقل إليه الطعام والماء، وهو رضى الله عنه، فى محنة الحصار.

وتوفيت صفية حوالى سنة خمسين، والأمر مستقر لمعاوية، ودُفنت بالبقيع، مع أمهات المؤمنين، رضى الله عنهن.

أم المؤمنين

(أم حبيبة)

السيدة رملة بنت أبى سفيان

رضى الله عنها

تركت أباها وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها، وارتدّ زوجها وفارقها فى غربتها بغير عائل يكفلها.. فأرسل النبى ﷺ إلى النجاشى يطلب الزواج منها وهى فى هذه الغربة المهلكة لينقذها من أهلها إذا عادت إليهم راغمة من هجرتها فى سبيل دينها، ولعل فى الزواج بها سببًا يصل بينه وبين أبى سفيان بوشيجة النسب، فتميل به من جفاء العداوة إلى مودة تخرجه من ظلام الشرك إلى نور الإسلام.

(المرحوم العقاد فى كتابه: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه).



هى (رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية) ابنة أبى سفيان وسيد مكة المطاع، وزعيم مكة، وقائد المشركين.

إنه الرجل الذى وقف فى وجه الدعوة الإسلامية حسداً من عند نفسه أن آتى الله النبوة رجلاً ليس من بنى عبد شمس ذويه.

وهو الرجل الذى تولى قيادة جبهة الكفر فى مواجهة جبهة الإيمان.

وأم حبيبة هى زوجة (عبيد الله بن جحش الأسدى)، ابن عمة المصطفى، الرجل الذى فارق دين قومه فى الجاهلية، واعتنق النصرانية، ثم آمن عندما جاء الله بالإسلام، وأسلمت معه أم حبيبة، وظل أبوها على الكفر، وكذلك أمها (صفية بنت أبى العاص الأموية).

وخشيت أم حبيبة أذى أبيها، فهاجرت مع زوجها إلى الحبشة وهى حامل، وتركت أباها فى مكة وقد جن غيظه وقهره، أن أسلمت ابنته وليس له إليها سبيل، وهناك فى الحبشة وضعت (رملة) بنت أسمتها حبيبة والتى كنيت بها، فصارت تدعى بها (أم حبيبة) وفى الحبشة ارتد زوجها عن الإسلام، ودخل دين الأحباش، ولعله رأى ما كان عليه المسلمون من فقر، ورأى ما كان عليه النصارى من بحبوحه فى العيش وسعة فى الرزق، ففضل العافية على الجهاد، فكان هذا هو سبب ارتداده عن الإسلام.

وهو فى ارتداده إلى النصرانية أحب أن تتبعه زوجته أم حبيبة، أليست النساء تبعًا للرجال فى كل شىء؟

قال عبيدالله لأم حبيبة: يا أم حبيبة قد رجعت إلى النصرانية، فهل لكِ أن تفعلى كما فعلت؟

قالت أم حبيبة وقد هالها ما سمعت، وفزعت فزعًا شديداً: والله يا عبيدالله ما خيرٌ لك.

وحاولت أن ترده إلى رشده فما رشد. ففيم كانت هجرة عبيدالله إذن، وفيم كان عذاب الاضطهاد ومحنة التشرد، ومرارة التنكر للآباء والأجداد،

وها هو ذا يرتد عن الإسلام الذى من أجله أحتملت (رملة) كل ذلك، ورضيت أن تذيق أباها عذاب القهر والغم.

لقد كان أكرم لعبيد الله، أن يبقى على دين آبائه، وأن يقاتل عنه مع قومه وعشيرته، دفاعًا عن ديانة وجدوا آباءهم عليها من قديم الزمان.

وبعد أن يكفر بهذا كله، ويرضى بالإسلام دينًا ليجئ إلى الحبشة فيكفر بالدين الإسلامى، ويستبدل به دينًا غريبًا لقوم غرباء، فى يسر ودون حرج، فأية مهانة وأى عار.

وهذه الأبنة الحبيبة، ما ذنبها لكى تولد لمثل هذا الأب المرتد، وقد ولدت ما بين أبويها، وتمزق شمل أسرتها وتوزعت أهلها ديانات شتى، فأبوها نصرانى، وأمها مسلمة، وجدها مشرك عدو للإسلام.

وأكب عبيد الله على الخمر يشرب منها حتى مات.

أما أم حبيبة (رملة) فقد اعتزلت الناس، شاعرة بالخزى والعار لفعلة الرجل الذى كان لها زوجًا، ولطفلتها والداً.

وعندما وصل خبر هذه الفاجعة المؤلمة إلى النبى ﷺ أسرع إلى جبر ما انكسر من فؤاد هذه المرأة المؤمنة.

استدعى الرسول ﷺ إليه ساعيه (عمرو بن أمية الضمرى) وأرسله إلى النجاشى ملك الحبشة، يطلب منه أن يزوجه من أم حبيبة.

ونفَّذ النجاشى ما أمره به الرسول ﷺ، فأرسل لأم حبيبة إحدى جواريه.

جاءت الجارية لأم حبيبة وقالت لها: (إن الملك النجاشى يقول لك وكلى من يزوجك من نبى العرب. فقد بعث محمد إلى الملك بكتاب ليقوم بتزويجك منه). سعدت أم حبيبة ونزعت سوارين لها من الفضة أعطتهما هدية للجارية، ووكلت عنها خالد بن سعيد لينوب عنها فى زواجها من رسول ﷺ. وكان النجاشى موكلاً عن النبى. وفى المساء أقام النجاشى حفلاً كبيراً دعا إليه كل

المسلمين بالحبشة، فجاؤوا يتقدمهم جعفر بن أبى طالب، وعمرو بن أمية الضمرى، الذى أرسله النبى ليطلب من المسلمين الاستعداد للعودة إلى بلاد العرب، بعد أن اشتد ساعد المسلمين.

تم زواج أم حبيبة ودفع لها النجاشى صداقًا قدره أربعمائة ديناراً احترامًا للنبى. وذهب المسلمون وهنأوا أم حبيبة، وباتت ليلتها تلك وهى أم المؤمنين، وظلت تسبِّح لله حمداً وتسجد له شكراً على ما أنعمه الله عليها من الخير والبركة.

وفى الصباح بعث لها النجاشى بهدايا كثيرة، كذلك نساء النجاشى بعثن لها بهدايا قيِّمة من الطيب والعنبر والعود، ونادت أم حبيبة الجارية التى أنبأتها برسالة النجاشى وقدمت لها خمسين درهما جائزة لها وقالت لها: (إن كنت أمس قد أعطيتك السوارين من الفضة فلأنى كنت لا أملك شيئًا، فأرجو أن تقبلى منى هذه الهدية). فأبت الجارية أن تأخذ الدنانير وردت السوارين وهى تقول:

(لقد أجزل الملك لى العطاء)، وسرحت أم حبيبة بخيالها إلى الرسول. إذ قد علم بما كان من تنصر زوجها ثم موته على دين النصرانية، فأراد أن يكرم فيها النساء المجاهدات المؤمنات.

ودعا النجاشى المسلمين وأعد لهم سفينتين، وركبوا البحر معززين مكرمين، ووصلوا المدينة فرحين مستبشرين، ولم تمض أيام حتى جاء النبى ﷺ من المدينة على رأس جيشه المنتصر فى خيبر، فصارت الفرحة فرحتين:

فرحة النصر، وعودة المهاجرين.

وعندما دخلت أم حبيبة بيتها، أولم سيدنا عثمان رضى الله عنه وليمة حافلة، نحر فيها الذبائح وأطعم الناس.

أستقبلت نساء النبى ﷺ مجئ أم حبيبة بشىء من المجاملة إذ كانت قد قاربت الأربعين. وسارت الحياة بأم حبيبة فى بيت النبى ﷺ رخاءً، لا يكدرها

إلا ما تراه من صد ونفور أبيها عن الدين الإسلامى. ولطالما منَّت نفسها بإيمان أبيها.

وعُقد (صلح الحديبية) بين النبى وقريش وهدأت نفس أم حبيبة قليلاً، فربما كانت الهدنة فرصة لأبيها كى يراجع نفسه، وربما هداه عقله إلى الإيمان بالله ورسوله وحقن دماء قريش وحلفائها.

وبلغت يومًا أن قريش قد نقضت (صلح الحديبية) وأدركت بفطنتها وبما تعرف من خُلُق زوجها ﷺ وسيرته، أنه لن يسكت على الظلم، ولن يرضى أن يغدر به، أو ينقض له عهد، فهل يغزو مكة ليهدم الأصنام على رؤوس المشركين.

وشعرت قريش بالخطر بسبب نقضها للعهد الذى بينها وبين محمد ﷺ، وأن مُحمّداً قد أصبح بنقضها لعهدها فى حل من أن يهاجمهم وأن يقاتلهم.

واستنجدت قريش بكبيرها أبى سفيان بن حرب أن يقصد إلى مُحمّد ليعمل على مد أجل الهدنة التى بينها وبينه. وليسعى فى زيادة تأكيدها وتثبيتها قبل أن تصل الأخبار إلى مُحمّد بما أحدثت قريش. وعلى ذلك قصد أبو سفيان إلى المدينة فيما أوفده فيه قومه. وفى الطريق علم أن مُحمّد قد سارت إليه الأخبار بما حدث من قريش، وأن ذهابه إلى المدينة لمقابلة مُحمّد قد أصبح جد عسير.

وعلى ذلك لم يستطع أبو سفيان أن يقصد إلى مُحمّد مباشرة فيما جاء من أجله، ورأى أن يقصد إلى ابنته أم حبيبة زوج الرسول، لتكون واسطة بينه وبين مُحمّد.

وقصد أبو سفيان إلى بيت أم حبيبة، ودخل على ابنته التى لم يراها ولم تره منذ وقت طويل.

وفوجئت أم حبيبة لرؤية أبيها بدارها، فوقفت حيرانة لا تدرى! ماذا تفعل؟!! ولا ماذا تقول؟!!

وتقدم أبو سفيان ليجلس على الفراش الذى مد بجانب من جوانب الحجرة، فإذا بابنته تسرع فتطويه عنه، حائلة بينه وبين الجلوس عليه.

ودهش أبو سفيان لما فعلت ابنته، فسألها: يا بنية، ما أدرى!! أرغبت بى عن الفراش، أم رغبت بالفراش عنى؟!

فأجابت بل هو فراش رسول ﷺ، وأنت رجل مشرك، فلم أحب أن تجلس عليه.

فغضب أبو سفيان من ابنته غضبًا شديداً، وقال لها: والله يا بنيه لقد أصابك شر بعدى!

وغادر أبو سفيان ابنته متأثراً غاضبًا، وبقيت أم حبيبة واجمة ساكنة، وقد بلغ بها التأثر مبلغًا عظيمًا..!

فها هو ذا أبوها الذى لم تره منذ سنين كثيرة منذ أن هاجرت إلى الحبشة، بعد أن فرَّق الإسلام بينها وبينه. ها هو تراه بعد هذا الأمد الطويل فلا تستطيع أن تلقاه كما تلقى الابنة أباها بعد طول الغياب وطول الإغتراب، أو يدخل دارها فلا تقدر أن ترحب به وتكرمه بما يجب أن تقدم البنت لأبيها من ترحيب وإكرام وذلك أن شركه بالله قد حال بينها وبينه، ولأن كفره قد وقف عقبة لا يمكن معها أن تجتازها إليه، ولم تملك أم حبيبة لأبيها من شىء إلا أن تتجه بقلبها وروحها إلى الله تطلب منه، وتبتهل إليه، أن يهدى أباها بهدى الإيمان، وينعم عليه بنعمة الإسلام.

ولم يطل انتظار أم حبيبة لما تمنت، فقد فشل مسعى أبى سفيان لمد الهدنة التى بين قريش ومُحمّد وخرج الرسول بعد أن جهز جيشه لمحاربة قريش وفتح مكة.

ثم لم تلبث الأخبار أن جاءت إلى أهل المدينة تقص عليهم أخبار الرسول. وتحكى لهم أنباء قريش فكان من أبهج هذه الأخبار عند أهل المدينة خبر فتح الرسول لمكة دون حرب، ودون مقاومة، وكان من أحلى الأنباء عند أم حبيبة نبأ

إسلام أبيها أبى سفيان بين يدى رسول الله. وحمدت أم حبيبة ربها، وكبرت لله شكراً، وقد أطمأن قلبها، وهدأت نفسها.

وعاشت أم حبيبة بعد ذلك ببيت الرسول عيشة راضية هانئة معتزة بمركزها كزوجة لرسول الله وابنة لزعيم من سادات قريش.

ثم عاشت من بعده حريصة على مركزها هذا بين زوجات الرسول، حتى إذا ما حضرتها الوفاة حرصت على أن تكون على بينة من رضاء ضرّتيها: عائشة وأم سلمة، اللتين كانتا تنصبان من أنفسهما قائدتين لحزبى زوجات الرسول، فاستدعت عائشة، وقالت لها: قد كان ما بيننا ما يكون بين الضرائر أفتحللينني (أى تسامحينى)، فحللتها عائشة، واستغفرت لها، فَسُرّت أم حبيبة، وبش وجهها، وقالت لعائشة:

سررتنى، سرّك الله!

ثم أرسلت إلى أم سلمه فقالت لها ما قالت لعائشة.

وماتت راضية عن نفسها، مرضيًا عنها ممن عرفنها وعاشرنها. وكانت وفاتها فى خلافة أخيها معاوية بن أبى سفيان سنة أربع وأربعين، وكان مثواها أرض البقيع بجوار أمهات المؤمنين، زوجات الرسول، رضى الله عنهن وصلى الله على سيدنا مُحمّد وعلى آله وصحبه وسلم.

أم المؤمنين
السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية
رضى الله عنها

سمّاها رسول الله ﷺ ميمونة، إذ كان زواجه بها فى المناسبة الميمونة الغراء التى دخل فيها أم القرى (مكة)، لأول مرة بعد سبع سنين من الهجرة، ومعه صحابته آمنين لا يخافون، فكان يومها يومًا ميمونًا حلّت بركته على الإسلام والمسلمين بالفتح العظيم.

ومن حديث عائشة عنها.. «ذهبت والله ميمونة.. أما إنها والله كانت من أتقانا وأوصلنا للرحم».

(طبقات ابن سعد والإصابة).

هى (بّرة بنت الحارث بن حزن بن بجير العامرية الهلالية)، إحدى الأخوات اللاتى شهد لهن الرسول بالإيمان، وقال عنهن: «الأخوات مؤمنات»، شقيقتها (أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث) زوج العباس بن عبد المطلب وأم بنيه، وثانى امرأة آمنت بعد خديجة رضى الله عنهما.

وهى التى ضربت رأس أبى لهب، عدوّ الله ورسوله والمسلمون، بعمود فى يدها، وقد رأته ينقض على مولى زوجها المسلم،(أبى رافع)، وكان رجلاً هزيلاً ضعيفًا ـ لشهادته أمام أبى لهب: "تلك والله الملائكة" بعد أن سمع حديث المغيرة بن الحارث؛ وكان حاضراً معركة بدر بين المسلمين وكفار مكة: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ويأسروننا كيف شاءوا، وأيم الله ـ مع ذلك ـ مالمت أحداً، فقد لقينا رجالاً بيضًا، على خيل بلق تبدوا أمامنا بين السماء والأرض، والله ما تُبقى شيئًا، ولا يقوم لها شىء!

فلم يتمالك أبو رافع ـ وكان مسلمًا حسن الإسلام، أن يقول ما قال أمام أبى لهب، الذى اغتاظ من مقولته، إذ لم يكن أبو رافع حاضراً معركة بدر، وهو بعد من الموالى فكيف يشرك نفسه فى حديث سادته، ونسى عدو الله أن الإسلام يسوّى بين الناس جميعًا، ولا فرق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح. وكانت فعلته الشنعاء، فاحتمل أبو رافع وضرب به الأرض، ثم انقض عليه يوسعه ضربًا شديداً موجعًا، فلم تتمالك أم الفضل نفسها، وكان موقفها النبيل، فضربته فشجّته شجة منكرة، مرض على أثرها أبو لهب ومات، فتخلص المسلمون من إيذائه وعداوته.

وإخوات بّرة لأمها: زينب بنت خزيمة الهلالية، أم المؤمنين، وأم المساكين، و (أسماء بنت عميس الخثعمية) زوج جعفر بن أبى طالب الشهيد ذى الجناحين (الطيار)، وأم ابنه عبدالله، وقد تزوجت من بعده أبا بكر الصديق فولدت له محمداً، ثم خلف عليها علىّ بن أبى طالب فولدت له يحيى، رضى الله عنهم.

و (سلمى بنت عميس) زوج حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وشهيد أُحد، وأم ابنته (أُمامة) التى زوجها المصطفى ﷺ ربيبه سَلمة.

وأمهن جميعًا، (هند بنت عوف بن زهير بن الحارث)، التى كان يُقال فيها: أكرم عجوز فى الأرض أصهاراً، هند بنت عوف: أصهارها، رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصديق رضى الله عنه، وحمزة والعباس ابنا عبد المطلب رضى الله عنهما، وجعفر وعلى ابنا أبى طالب رضى الله عنهما.

وكان لهند غير هؤلاء أصهار آخرون من ذوى المكانة: الوليد بن المغيرة المخزومى، زوج لبابة الصغرى بنت الحارث، أم خالد بن الوليد (سيف الله المسلول)، وأبىّ بن خلف الجمحى، زوج ابنتها عصماء بنت الحارث، وزياد بن عبدالله بن مالك الهلالى، زوج عزة بنت الحارث.

ولبابة، وعصماء، وعزة، بنات الحارث شقيقات لبّرة.

كانت برة بنت الحارث الهلالية، الشابة المسلمة المتعبدة، والتى ترملت من زوجها (أبى رهم بن العزى) وهى لا تزال بعد فى السادسة والعشرين، تُسّر إلى شقيقتها الكبرى أم الفضل بما تاقت إليه نفسها.. فقد مال قلب بّرة، وهفت روحها، لأن تكون زوجة لنبى المسلمين، تلمس عظمة الإسلام عن قرب، وتشارك المجاهد الكبير حياته.

واستمعت أم الفضل إلى أُمنية أختها بعطف ورضا، ثم أفضت بها إلى زوجها العباس، وكان لأم الفضل أمر أختها، ففوّضته إلى العباس.

وسار العباس إلى النبى يحدثه عن بّرة المسلمة المؤمنة ويقول له: ولقد تأيمت من أبى رهم بن عبد العزى، فهل لك أن تتزوجها؟

ارتضى رسول الله زواج برة، وأرسل ابن عمه جعفراً زوج أختها أسماء يخطبها، وجاء طلب خطبة الرسول إلى بّرة، وهى على بعير لها، فكان جوابها: البعير وما عليه لله ولرسوله.

وزوّج العباس بّرة من رسول الله ﷺ على صداق قدره أربعمائة درهم.

كانت الأيام الثلاثة التى نص عليها عهد الحديبية، قد قاربت نهايتها، فودّ المصطفى لو يمهله المكيون، ريثما يتم الزواج، فيكسب بهذا الإمهال

مزيداً من الوقت، ليُمكن الإسلام من هؤلاء الذين لا يزالوا يكفرون بألسنتهم عناداً وحسداً.

فقال النبى مسالمًا يرد على رُسُل قريش: ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه.

وخشيت قريش عاقبة إطالة مُحمّد بمكة، فكان جوابهم أن قالوا بشدة وجفاء: (لا حاجة لنا فى طعامك فاخرج عنا).

فنزل على كلمتهما وفاءً بعهده، وأذن فى المسلمين بالرحيل مخلفا مولاه (أبا رافع) بمكة، ليلحق به فى صحبة (برّة).

وفى (سرْف) قرب التنعيم، على مقربة من مكة، نزل الرسول فى انتظار عروسه، وخرَج أبو رافع بعروس رسول الله من مكة ليلاً حتى لحق بالرسول، وفى ظلال شجرة كبيرة أُقيمت قُبة زُفّت فيها برّة إلى النبى، ولم يرض الرسول عن اسم برّة اسما لزوجته، فسمّاها (ميمونة)، إذ كان زواجه بها فى المناسبة الميمونة الغراء، التى دخل فيها أم القرى، لأول مرة من سبع سنين، ومعه صحابته آمنين محلّقين لا يخافون، وكانت ميمونة آخر زوجة زُفّت إلى رسول الله.

ودخلت (ميمونة) بيت النبى مسالمة، فقد اكتفت من دنياها بما مّن الله عليها من نعمة الإسلام، وشرف الزواج بالنبى الكريم ﷺ.

وعاشت ميمونة ببيت الرسول، ما عُرف عن حياتها إلا أنها حياة الإيمان والتعبد، وما اشتهر عنها غير العمل علىَ مرضاة الله ورسوله، وصلَة الرحم، لاتنى على أداء عبادتها، وكان مسواك ميمونة زوج النبى ﷺ منقعًا فى ماء فإن شغلها عمل أو صلاة وإلا أخذته فاستاكت به.

ولم تكن - رضى الله عنها - تتهاون فى شىء ترى فيه خروجًا عن طاعة الله، دخل عليها يومًا قريب لها، فشمّت منه ريح خمر، فقالت له ناهرة زاجرة: لئن لم تخرج إلى المسلمين فيجلدوك ويُطهّروك، لا تدخل علىّ بيتى أبداً.

وأبصرت يومًا حبّة رمان ملقاة على الأرض، فرفعتها وهى تقول: إن الله لا يحب الفساد.

وعندما شعر الرسول ببوادر المرض الذى مات فيه، كان يطوف كعادته اليومية على سائر نسائه، فاشتد به المرض وهو فى بيت ميمونة، فلما طلب أن يُمرّض فى بيت عائشة، قبلت ذلك ميمونة عن طيب خاطر مرضاةً للرسول.

وشاركت ميمونة فى تمريض الرسول والعناية به، وعاونت أختها أسماء على صُنع دواء، أشار بُصنْعه العباس ليُصبَّ فى فم الرسول وهو فى غيبوبة المرض ليستشفى به، وكانت أسماء قد تعلمت صُنع هذا الدواء أثناء وجودها بالحبشة.

ولما أفاق الرسول وعرف ما صُنِع به غضب وقال: «من صنع بى هذا؟».

فقيل له: عمك، يا رسول الله..!

وقال العباس: خشينا يا رسول الله أن يكون بك ذات الجنب، أى مرض فى الرئة.

فقال الرسول: «إن ذلك لداء ما كان الله عز وجل ليقذفنى به».

وأمر الرسول أن يُلدّ كل من فى البيت بالدواء الذى صُنِع له عقابًا لهم، ولم يستثن من ذلك غير عمه العباس، أى يُصَبّ فى فم كل منهم مقدار من الدواء الذى صنعوه له، وصبوه فى فمه بغير إذنه.

فَلُدّ جميع من بالدار، حتى ميمونة التى كانت صائمة فى ذلك اليوم.

فلما انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى، عاشت ميمونة من بعده ولا ذكرى لها غير ذكرى السنين القليلة التى قضتها بجوار خير البشر، وتذكر اليوم الميمون الذى زُفّت فيه إلى رسول الله، فتحن إلى البقعة المباركة فى (سِرْف) حيث بنى بها.

وقد أوصت أن تُدفن فى موضع قبتها هناك، فلما ماتت سنة إحدى وخمسين، صلى عليها ابن اختها عبدالله بن عباس، وأوصى الذين يحملونها بالترفق بها، حتى أرقدوها حيث أحبت.

وتركت ميمونة من بعدها ذكرى عطرة طيبة، ومن بركتها رضى الله عنها، أن صار أبناء يسار، مولى السيدة ميمونة: عطاء وسليمان ومسلم وعبد الملك كلهم فقهاء.

ويقول يزيد بن الأصم (ابن اختها): تلقيت السيدة عائشة وهى مقبلة من مكة، أنا وابن طلحة بن عبيدالله[1]، وقد كنا وقفنا على حائط (بستان) من حيطان المدينة فأصبنا منه، فبلغها ذلك.. فأقبلت على ابن اختها تلومه وتُعنِّفه، ثم أقبلت علىّ فوعظتنى موعظة بليغة ثم قالت: أما علمت أن الله ساقك حتى جعلك فى بيت من بيوت نبيه...؟ ذهبت والله ميمونة، ورُمى بحبلك على غاربك، أما إنها كانت والله من أتقانا لله، ومن أوصلنا للرحم..!

رحم الله ميمونة، أم المؤمنين ورضى الله عنها وعن سائر أمهات المؤمنين، وصلى الله على مُحمّد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) من أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق وكانت زوجة لطلحة بن عبيد الله التيمى.

مارية القبطيّة (أُمّ إبراهيم)
(سُرِّيّة من مصر)

قال رسول الله ﷺ: «أنكم ستفتحون أرضًا يُذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحمًا».

(صحيح مسلم: باب وصية النبى ﷺ بأهل مصر).



هى (مارية بنت شمعون) أبوها قبطى وأمها مسيحية رومية، ولدت فى قرية عتيقة بصعيد مصر تُدعى (حفْن)[1] الواقعة على الضفة الشرقية للنيل، والملاصقة لأنصنا تجاه الأشمونين.

وأمضت بها طفولتها، ثم انتقلت فى أول شبابها مع أختها (سيرين) إلى قصر (المقوقس عظيم القبطجُريح بن مينا) صاحب مصر من قِبَل (هرقل) ملك الروم. وكان المقوقس يقيم بمصر حينا، وبالإسكندرية حينًا آخر، وتبعًا لإقامته كانت حاشيته تتبعه، وكان أكثر خدمه وجواريه يقيمون حيث يقيم.

وبينما هو بقصره المطل على البحر بالإسكندرية، ذات صيف، يستمتع بهواء البحر الرطب الجميل دخل عليه حاجبه يستأذن عليه فى دخول رسول اسمه (حاطب بن أبى بلتعه) قد وفد من جزيرة العرب يحمل كتابًا له.

وكان النبى ﷺ عند منصرفه من الحديبية قد قال لأصحابه: «أيها الناس، أيكم ينطلق بكتابى هذا إلى صاحب مصر، وأجره على الله»، فقام حاطب قائلاً: أنا يا رسول الله، قال ﷺ: «بارك الله فيك يا حاطب» وكان ذلك سنة سبع من الهجرة.

وأذن المقوقس للرسول بالدخول، فدخل عليه رجل يرتدى ملابس العرب، قد جاوز الأربعين بقليل، وقدّم حاطب الكتاب الذى يحمله إلى المقوقس ، فقرأ فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم.. من مُحمّد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط»[2].

---

(١) لما تم الفتح الإسلامى لمصر عام ٢٠ هـ (٦٤١م) اهتم الصحابى الجليل عبادة بن الصامت بالبحث عن قرية (حفن) التى ولدت فيها السيدة مارية، وبنى بها مسجدًا، وبمضى الأيام تحول اسم القرية من حفن إلى بلدة (الشيخ عباده) المعروفة به حاليًا.

(٢) لأن الناس على دين ملوكهم فإن لم يسلم بقى قومه على دينهم وتحمل هو وزرهم.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) ﴾[١].

وختم ﷺ الكتاب بخاتمه الفضه وكان نقشه ثلاثة أسطر:

مُحمّد سطر، ورسول سطر، والله سطر، والأسطر الثلاثة تقرأ من أسفل إلى فوق، فمُحمّد آخر الأسطر، ورسول فى الوسط، والله فوق، وهذا من أدبه مع مليكه»[٢].

وقرأ المقوقس كتاب النبى ﷺ وأعظمه وطواه، ووضعه فى حق من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له. ودار بينه وبين حاطب الحوار التالى:

المقوقس: ما منعه إن كان نبيًا أن يدعو على من خالفه وأخرجوه من بلد إلى غيرها أن يسلط عليهم[٣] (وتمر لحظات صمت من جانب حاطب تجعل المقوقس يعيد السؤال).

حاطب: ألست تشهد أن عيسى رسول الله؟ فما له حين أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه، أن لا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى، حتى رفعه الله.

المقوقس: أنت حكيم جاء من عند حكيم.

حاطب: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى[٤] فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به، ثم انتقم منه[٥] فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك.

---

(١) آل عمران: ٦٤.

(٢) وكان الخاتم فى يد النبى ﷺ ثم فى يد أبى بكر، ثم فى يد عمر، ثم فى يد عثمان حتى وقع منه فى بئر أريس سنة وفاته.

(٣) يوضح كلام المقوقس هذا أنه قد وصلت إليه أخبار النبى ﷺ ودعوته وكفاحه.

(٤) يقصد فرعون موسى﴿ فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم الأعلى (٢٤) ﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤].

(٥) فانتقم به من بنى إسرائيل لارتكابهم المعاصى ﴿ يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ﴾ [القصص: ٤] ثم انتقم منه لكفره ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ﴾ [القصص: ٤٠]

(ويسترسل حاطب رضى الله عنه)

حاطب: إن هذا النبى ﷺ دعا الناس، فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم عليه يهود، وأقربهم منه النصارى.

ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى عليهما الصلاة والسلام، إلا كبشارة عيسى بمحمد ﷺ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل.

وكل نبى أدرك قوما هم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبى ولسنا ننهاك عن دين المسيح عليه السلام، ولكنا نأمرك به .

المقوقس: إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب عنه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكذاب، ووجدت معه آلة النبوه[1] بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى (أى يعرف المستور ويخبر بالأسرار) وسأنظر.

يستبشر حاطب خيراً ويطمع فى المزيد فيبدأ فى وصف النبى ﷺ وبيان شمائله العظيمة.

المقوقس: (مقاطعًا): أفى عينيه حُمرْة؟

حاطب: ما تفارقه.

المقوقس: أو بين كتفيه خاتم، ويركب الحمار ويلبس الشملة، ويجتزئ بالثمرات والكسرة (أى يرضى ويكتفى بها)، ولا يبالى ما لاقى من عم أو ابن عم (اى فى سبيل نشر دعوة الإسلام).

حاطب: هذه صفته.

المقوقس: لقد كنت أعلم أن نبيًا قد بقى، وكنت أظن أنه يخرج من الشام، وهناك كان مخرج الأنبياء، فأراه قد خرج من أرض العرب.

(١) من معجزات يؤيد بها الله أنبياءه ورسله.

(ويصمت لحظات ثم يستأنف حديثه).

المقوقس: القبط لا يطاوعونى فى اتباعه، ولا أحب أن يعلموا بمحاورتى إياك، وأنا أضن بملكى[١]، فارجع إلى صاحبك وارحل من عندى، ولا تسمع منك القبط حرفًا واحداً.

بعدها خرج حاطب بن بلتعه عائداً إلى المدينة المنورة يحمل كتاب المقوقس وهداياه إلى النبى ﷺ. وفى كتابه يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم: لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك.

أما بعد: فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًا قد بقى، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وهناك كان مخرج الأنبياء، فأراه قد خرج من أرض العرب، ولكن القبط لا تطاوعنى، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وبثياب ومطية لتركبها، والسلام عليك.

ثم أمر بتجهيز الهدايا لتُرسل إلى النبى العربى، فجُهِّزَت، وكان فى مقدمتها، جاريتان من أعز وأجمل جوارى القصر، هما مارية وسيرين يصحبهما خادم لهما يُدعى مابور، وقيل هابو، وهو ابن عم السيدة مارية، وكان فيها ملابس وأدوات للزينة، وألف مثقال من ذهب، وبغلة شهباء يُقال لها (دلدل) أى القنفذ العظيم، وحمار يُقال له (يعفور) مأخوذ من العفرة وهى لون التراب، وفرس أشقر هو (اللزاز أو الميمون)[٢] وبعض من عسل بنها، وقد دعا له النبى ﷺ بالبركة، وطبيب، رده النبى إلى بلاده لأنه ليس فى حاجة إليه قائلاً فى ذلك: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع[٣]».

---

(١) ولما ذكر حاطب ذلك للبنى ﷺ قال: ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه، وقد كان، وفى رواية قال المقوقس: لولا الملك - يعنى الامبراطور الرومانى - لأسلمت.

(٢) وكان من خُلقُ النبى أن يسمى سلاحه ومتاعه ودوابه (رواه ابن عساكر).

(٣) وإن صحت هذه الرواية فقد يكون سبب رده عدم ثقة النبى فيه، أو لعدم مطابقة طبه لما يتداوودن به فى بلادهم فى ذلك الوقت، فالإسلام يدعو إلى التداوى؛ وفى الحديث الشريف «تداووا عباد الله فإن الله سبحانه لم يضع داء إلا وضع له دواء إلا الهرم» (حديث ٣٤٣٦ ابن ماجه وغيره).

وانطلق حاطب بهدايا المقوقس عائداً إلى النبى ﷺ، وقد بعث معه المقوقس بعض جنده يحرسونهم، حتى إذا دخلوا جزيرة العرب، وجدوا قافلة من الشام تريد المدينة ورأى حاطب أن يصحب القافلة، وأن يطلب من حرس المقوقس العودة إلى بلادهم، ففعل، وسار ومن معه فى صحبة القافلة، حتى دخل وإياهم المدينة.

وفى الطريق حدّث حاطب الجاريتين ومابور عن الدين الإسلامى وشمائل نبيه، فشرح الله صدر الجاريتين للإسلام فأسلمتا بينما بقى الغلام على دينه ثم أسلم بعد ذلك فى عهد النبى ﷺ.

واستقبل نبى المسلمين هدية مقوقس مصر بالقبول والرضا.

فاصطفى مارية لتكون فى ملكه، ووهب سيرين لشاعر المسلمين (حسان بن ثابت) وضرب الرسول على مارية الحجاب، وأنزلها بدار الحارثة بن النعمان، بالقرب من مساكن زوجاته، ولكن زوجاته غرن من مارية لأنها كانت بيضاء جعدة جميلة، وكان النبى يُعجب بها، وبلغتَ الغيرة مبلغها من هذه الوافدة الغريبة، ولم يستطعن أن يتركنها تعيش بالقرب منهن فى سلام، فكان منهن ما جعل النبى يخاف على مارية من تضافرهن عليها، فنقلها إلى العالية فى المال الذى صار إليه من أملاك بنى النضير. ويُسمى مشربة أم إبراهيم، وكان النبى ﷺ يختلف إليها بملك اليمين، بين الحين والحين.

ولم تهدأ غيرة أزواج النبى عن مارية، بل كانت عائشة أحب زوجات النبى إليه تقول:

«ما غِرت من امرأة إلا دون ما غرت من مارية، وذلك لأنها كانت جميلة جعدة، وأُعَجب بها الرسول».

أما حينما أسرّت مارية إلى النبى بنبأ حملها فقد اغتبط النبى لهذا النبأ أشد الاغتباط، وسُرّت نفسه أسد السرور، ولما عرف زوجاته ذلك لم يملكن أن اغتظن وحزنَّ، ونفسّنَ على مارية الجارية أن تحمل دونهن، وتلد للنبى الولد الذى لم يستطعن جميعًا أن يلدنه له.

على أن غيرة أمهات المؤمنين، رضى الله عنهن، لم تنل من (مارية) ما نالته شائعة سوء أرجف بها مُرْجفون من أهل المدينة.

ولم يتخل الله عنها فى محنتها، بل أتاح لها دليلاً قاطعًا على براءتها من الريبة. وذلك أن على بن أبى طالب تعهّد للرسول أن يأتيه بالخبر اليقين، وكان الخبر اليقين الذى جاء به علىّ إلى الرسول، هو أن مابور خادم مارية غلام مجبوب[1].

وسرّى عن نفس النبى ﷺ، وداوم على رعايته لمارية والعناية بها، حتى أتمت أشهر حملها، فدعا ﷺ قابلتها (سلمى) زوج أبى رافع، ثم انتحى ناحية من الدار، يصلى ويدعو.

فلما جاءته أم رافع بالبشرى، أكرمها كل الإكرام، وخفّ إلى مارية فهنأها بولدها الذى أعتقها من الرِّق، ثم حمل وليده بين يديه فى غبطة وسماه (إبراهيم) تيمنًا باسم جد الأنبياء.

وتصدّق ﷺ على كل فقير ومسكين من أهل المدينة بوزن شعر الوليد ورقا، وتنافست نساء الأنصار أيتهن تُرضعه، وأحبوا أن يفرِّغوا مارية للنبى ﷺ لما يعلمون من هواه فيها، فاختار مرضع ولده، وهى أم بردة (كبشة بنت المنذر) من بنى النجار فدفعه إليها لترضعه، وجعل فى حيازتها قطعة من الماعز كى ترضعه بلبنها إذا شح ثدياها.

وزوج مرضعة إبراهيم هو (البراء بن أوس) من بنى مازن بن النجار وكان إبراهيم فى بنى مازن، إلا أن أُمه تؤتى به، ثم يُعاد إلى منزل ظئره (مرضعته) أم بردة، وكان رسول الله ﷺ يأتى أم برده، فيقيل عندها، وتخْرُج إليه إبراهيم، فيُحمله ويُقبّله.

وينزل الأمين جبريل على النبى يقول له:

السلام عليك يا إبراهيم.

---

(١) المجبوب أكثر من خصى فلا يوجد له شيء إطلاقًا.

فيثلج صدر النبى، وتطيب روحه، وتنشرح نفسه، ويظهر البشْر على وجهه.

وكان لرسول الله ﷺ لقاح (يناق) وقطعة غنم، فكانت مارية تشرب من ألبْانها، وتسقى ولدها.

وينمو إبراهيم نمواً طيبًا، كان داعيًا لغبطة الرسول وفرحه وكان سببًا لأن يحمله بين يديه، ويذهب به إلى زوجته عائشة، ليُريها إياه، ويسألها فرحًا:

«يا عائشة: أنظرى الشَّبه بينى وبينه؟».

ولكن عائشة التى كانت تلدغها الغيرة لم تملك نفسها من أن تجيب زوجها بجفوة: ما أرى بينكما شبهًا..!

فقال: ألا ترين بياض لحمه؟

فقالت: من قصرت عليه اللقاح وسقى ألبان الضأن، سمن وابيض.

وهكذا كانت تفعل الغيرة بنفوس نساء النبى من مارية وولدها، وعلى الرغم من حرص النبى على تجنيبهن هذه الغيرة أتت حادثة كانت سببًا فى أن حرّم الرسول مارية على نفسه، ثم كانت هى وغيرها سببًا فى أن غضب الرسول على زوجاته جميعًا، فهجرهن شهراً.

فقد جاءت مارية يومًا إلى الرسول فى أمرٍ لها، فأدخلها مسكن زوجته حفصة التى كانت وقتئذ فى زيارة لأبيها عمر بن الخطاب. وعادت حفصة من زيارة أبيها، فوجدت ستر مسكنها مُسْدلا، وعلمت أن مارية مع الرسول بداخله، فتملكتها غيرة شديدة، وعصف بها غضب شديد، وكانت كلما استطال الوقت ومارية بداخل مسكنها زادت غيرتها، واشتد غضبها، حتى إذا خرجت مارية أقبلت حفصة على الرسول ثائرة النفس تقول: يا نبى الله! لقد جئت إلىَّ شيئًا ما جئت إلى أحد من أزواجك، فى يومى وفى دورى وعلى فراشى، لقد رأيت من كان عندك! والله لقد سببتنى وما كنت لتصنعها لولا هوانى عليك!

واندفعت باكية.. ورأى النبى مبلغ ما عليه زوجته حفصة من غيظ وقهر، وشعور بالإهانة، فأقبل عليها يترضاها مترفقا بها، حتى أقسم لها أن مارية عليه حرام إن هى ضربت صفحا عما حدث، ولم تذكر لأحد عنه شيئًا.

ولكن حفصة لم تستطع أن تكتم هذا الخبر السار عن صديقتها وضرتها عائشة، فأسرّت إليها أن:

أبشرى! فإن رسول الله حَرّم عليه وليدته.. تعنى مارية. وبهذا شاع الخبر الذى طلب النبى من حفصة كتمانه، فغضب منها، ثم كان من ذلك ومن غيره أن غضب الرسول على زوجاته جميعًا، فهجرهن جميعًا. فلما عاد إليهن كُنَّ مؤمنات، قانتات، تائبات، عابدات، وأنزل الله على نبيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾[1].

فأحلّ النبى بذلك مارية بعد أن حرّمها على نفسه.

وهنئت مارية بالرسول، وهنئت بوليدها إبراهيم، الذى كان قد شبّ وترعرع واجتاز الشهر السادس بعد السنة، وسعد الرسول معها بإبراهيم، وقرّت عينه، فقد وهبه الله هذا الغلام الجميل فى كبره، ليتعزى به عمن فقد من أبناء السيدة (خديجة) أم المؤمنين رضى الله عنها.

لكن سعادة (مارية) لم تدم طويلاً.. ثم كانت المحنة والكارثة الكبرى.

مرض (إبراهيم) ولم يبلغ عمره عامين، فحزنت أمه، ودعت إليها أختها سيرين، وظلتا ساهرتين حول فراشه تمرّضانه، ونفساهما تذوبان عليه فى لهفة وقلق، لكن الحياة أخذت تنطفئ رويداً رويداً.. فجاء أبوه ﷺ معتمداً على يد (عبد الرحمن بن عوف) لشدة ألمه، فحمل إبراهيم من حجرْ أمه ووضعه فى حجرْه، وهو محزون القلب، ضائع الحيلة، لا يملك إلا أن يقول فى أسى وتسليم:

(١) التحريم: ١.

«إنا يا إبراهيم لا نُغنى عنك من الله شيئًا».

ثم ذرفت عيناه وهو يرى ولده الوحيد يعالج سَكَرات الموت ويسمع حشرجة احتضاره، مختلطة بعويل الأم الثكلى، والخالة المفجوعة.

فلما بات إبراهيم جسداً لا حِراك به، انهملت الدموع من عينى الرسول وقال:

«يا إبراهيم! لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزنّا عليك بأشد من هذا..! وإنَّا ياإبراهيم عليك لمحزونون».

وأقبل النبى على الأم الثكلى (مارية) يواسيها عن ابنها قائلاً: «إن له لمرضعا فى الجنة».

وغُسِّل إبراهيم، وحُمِل على سرير صغير إلى البقيع، يشيّعه النبى، وعمه العباس، وجماعة من المسلمين.

وجلس رسول الله ﷺ على شفير قبر إبراهيم، ونزل الفضل ابن العباس، وأسامة بن زيد فى قبره، ودُفن إبراهيم، وسوّى النبى قبره بيده، ورش عليه الماء، وأعلم عليه بعلامة وهو يقول:

«إنها لا تضر ولا تنفع، ولكنها تُقرُّ عين الحى، وإن العبد إذا عمل عملا أحبّ الله أن يتقنه».

وكُسِفت الشمس يوم موت إبراهيم، فقال الناس

إنما كُسِفت لموت إبراهيم بن النبى ﷺ.

وسمع النبى قولهم، فقال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة».

واستسلم الرسول ﷺ لقضاء ربه راضيًا به، وطوى جرحه فى قلبه صابراً، واعتكفت مارية فى بيتها، تحاول أن تتجمل بالصبر حتى لا تجدد الجرح فى

قلب النبى ﷺ، فإذا نفذ صبرها خرجت إلى البقيع، فاستروحت لقرب فقيدها، والتمست راحة فى البكاء.

ولكن أيام النبى ﷺ لم تطل بعد موت إبراهيم، فما أهلّ ربيع الأول من السنة التالية لموت إبراهيم حتى توفى النبى ﷺ، ولحق بالرفيق الأعلى.

مات الرسول ﷺ، وخلّف مارية، لا يُعزّيها إلا أنها كانت أما لولد الرسول، ولا يواسيها هى وأختها فى غربتهما إلا وصاة الرسول بآلهما، إذ قال يوصى المسلمين:

«استوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمة ورحما».

كما قال: «الله فى أهل الذمة، أهل المدرَة السوداء، السّحم الجعاد، فإن لهم نسبا وصهراً».

والرحم والنسب والصهر، اللذان أشار إليهما النبى هما: رحم ونسب وصهر هاجر، أم إسماعيل، جارية خليل الله إبراهيم عليه السلام، جد النبى والأنبياء.

ورحم ونسب وصِهْر مارية، أم إبراهيم، ولد مُحمّد رسول الله.

وماتت مارية بعد نحو خمس سنوات من وفاة النبى ﷺ فى شهر المحرم سنة ١٦ هجرية، فحشد لها عمر بن الخطاب الناس يسيرون فى جنازتها، وصلى عليها وشيّعها الناس حتى مثواها بالبقيع.

وعمل المسلمون بوصية الرسول، فاستوصوا بالقبط خيراً، فكانوا وإياهم إخوانا أعزاء.

ريحانة بنت عمرو

آلت إلي الرسول ﷺ

بمِلْك اليمين، وهى من بنى النضير

أسلمت ريحانة فعرض عليها الرسول أن يعتقها ويتزوجها ويضرب عليها الحجاب، فأبت وقالت: يا رسول الله، بل تتركنى فى مِلكك فهو أخف عَلىّ وعليك!

هى (ريحانة بنت عمرو بن خناقة من بنى النضير) كانت زوجا لرجل من بنى قريظة اسمه (الحكم)، محبا لها مكرما، وكانت امرأة جميلة وسيمة، فلما قُتِل زوجها، قالت: لا أستخلف بعده أبداً.

وقصة قومها اليهود مع المسلمين ونبيّهم مُحمّد ﷺ بدأت منذ هاجر مُحمّد من مكة إلى المدينة تاركًا قومه، إلى الأنصار الذين أيدوه ونصروه.

واستقبل الأنصار من أهل المدينة رسول الله بالفرح والترحاب، وأنزلوا المهاجرين من أصحاب الرسول بديارهم على سِعَة، وقاسموهم أموالهم، وأشركوهم فى متاعهم.

وكذلك استقبل اليهود من أهل المدينة رسول الله بالفرح والترحيب، وهم يطمعون أن يضموه إلى صفوفهم، يدعو لدينهم، ويتبع تعاليمهم.

وعاهد مُحمّد اليهود ووادعهم وأمَّنهم على دينهم وأمواله، وكتب لهم المواثيق والعهود، وتقرّب منهم، وجامل رؤساءهم حتى صام يوم صومهم، ثم انصرف يدعو لدين الله، ويعمل على نصرة الإسلام والمسلمين.

ولم يرض يهود المدينة على ذلك!

فقد تيقن اليهود أن مُحمّداً ما هو إلا النبى المنتظر الذى عرّفتهم به كتبهم، وحدّثهم عنه أحبارهم، وتأكد لديهم أنه هو الرسول الذى ظلوا ينتظرونه، ويترقبون مبعثه السنين الطويلة ليضموه إليهم، وينتصروا به على أعدائهم من أهل النصرانية، وكانوا يُهددون به جيرانهم من الأوس والخزرج ويُرْهبونهم بقرب مبعثه، ثم يُبعث الرسول الذى انتظروه وترقبوه، فإذا هو يدعو إلى دين الإسلام، تعاليمه غير تعاليم دينهم، وإذا الأوس والخزرج هم الذين يتبعونه! وإذا هم الذين يشتد ساعدهم به..!

ولم يستطع اليهود السكوت، والصبر على هذا الدين الجديد وصاحبه، فقد خاف اليهود سلطان مُحمّد بالمدينة من أن يذهب بسلطانهم، وخشوا الأوس والخزرج مؤمنين أكثر مما خافوهم مشركين.

ونافق اليهود مُحمّداً وأتباعه زمنًا ، يظهرون له وللمسلمين غير ما يُبيّتون ويُضمرون، ثم بدأوا يكشفون عن قناعهم، ويخلعون حجاب رياءهم، فناوشوا مُحمّداً ، وحاجّوه، وسفّهوا رأيه، ثم كذّبوه، وأنكروا نبوته، وجحدوا رسالته.

وسار اليهود بين المسلمين بالأكاذيب والدسائس. وتحايلوا كل التحايل فى خلق المشكلات وإثارة الفتن. ثم كان أن كثر التشابك والتلاحم بين المسلمين واليهود ، ثم كان أن نقض يهود بنى قينقاع عهدهم مع رسول الله والمسلمين، وكان ذلك بعد موقعة بدر التى انتصر فيها المسلمون على كفار مكة، إذ هجا شاعر اليهود كعب بن الأشرف النبى ﷺ، وسخر من المسلمين، وشبّب بنسائهم، وخرج إلى مكة باكيًا قتلى قريش محرّضًا قريش على الأخذ بثأر بدر من المسلمين، وليس هذا فحسب، بل إن امرأة مسلمة خرجت إلى صائغ يهودى، فأرادها أن تكشف وجهها، فلما أبت رفع اليهودى ذيل ردائها، وكاد يتحول الأمر إلى مذبحة، لولا أن سيطر الرسول على الموقف، وبعد ذلك ذهب إليهم النبى ﷺ، وذكرّهم بعهدهم، وحذّرهم مغبّة نقضه، فقالوا له: يا مُحمّد! أرأيت أننا قومك، لا يغرنّك إن لاقيت قومًا لا علم لهم بالحرب (يُعرِّضون بقريش، ويهوِّنون من انتصار المسلمين يوم بدر) فأصبت منهم فرصة، إنّا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس، فحقّ بذلك للرسول والمسلمين قتالهم.

وحاصر المسلمون يهود بنى قينقاع حتى استسلم اليهود ونزلوا على حكمهم، فقضى مُحمّد فيهم بأن يغادروا المدينة فى مدة أقصاها ثلاثة أيام على ألا يأخذوا معهم من متاعهم وأموالهم إلا ما يسمح لهم بأخذه.

ونزل بنو قينقاع على حكم الرسول، وغادروا المدينة إلى أذرعات بالشام، تاركين أكثر أموالهم متاعًا للمسلمين.

أما الجولة الثانية فكانت مع يهود بنى النضير، بعد موقعة أُحدُ.

فقد ذهب النبى ﷺ فى جمع من أصحابه إلى بنى النضير ليستعين بهم فى دفع ديّة، فأظهروا الترحيب والسرور بمقدمه، ودبّروا سراً أن يُلقوا عليه

صخرة من فوق جدار كان الرسول يجلس بجواره، فأعلمه الله بما يُبَيِّتون له من شر، فقام مسرعًا يمشى نحو المدينة، وأرسل إليهم من يأمرهم بالجلاء عن المدينة لنقضهم عهد السلام مع المسلمين، ولما تلكأوا فى الخروج انتظاراً لمناصرة عبدالله بن أبى بن سلول، حاصرهم المسلمون، فخرجوا ولهم ما حملت الإبل من الأموال والأمتعة، وتركوا سلاحهم ومغانم كثيرة للمسلمين.

ذهب فريق منهم إلى أذرعات بالشام، ورحل فريق إلى خيبر ومنهم حيى بن أخطب والد السيدة صفية زوجة النبى ﷺ.

وظل يهود بنى قريظة بالمدينة لما بينهم وبين المسملين من تحالف، حتى كانت غزوة الأحزاب.

وبقيت قريظة تنتظر لمن يكون النصر.. ألليهود وأحزاب العرب، أم لُمحمّد والمسلمين؟! ولم يطل ببنى قريظة الانتظار، فقد جاءتهم الأخبار تؤكد ظهور علامات تفكك الأحزاب، وتظهر لهم استياءهم، وتذمرهم من بقاءهم مُحاصِرين للخندق الذى أقامه المسلمون حول المدينة فى شتاء بارد قارس.

ثم لم يلبث حييّ بن أخطب زعيم يهود بنى النضير والمحرّض الأول على جمع جموع الأحزاب أن جاء إلى كعب بن أسد صاحب عقد بنى قريظة يُحرِّضه على الغدر بمُحمّد.

وخشى كعب عاقبة غدره بمُحمّد، ونقض حلفه للمسلمين، فأغلق بابه دون حُيىّ بن أخطب، ورفض السماح له بمقابلته، ولكن حُييّا ما زال بكعب يُمنيّه ويعده حتى قال: ويحك يا كعب! جئتك بعز الدهر، وببحر طام، جئتك بقريش وبغطفان مع قادتها وسادتها، وقد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل مُحمّداً ومن معه، وما زال حُيىّ بكعب يُحرّضه على الغدر بمُحمّد ويحثه على نقض حلِفه للمسلمين حتى مال كعب للغدر، واستقر رأيه على خيانة المسلمين.

وعلم النبى ﷺ بغدر يهود بنى قريظة، وتحركهم المشبوه واتفاقهم مع الأحزاب، فأرسل إليهم بنفر من أصحابه فيهم سعد بن معاذ، وسعد بن عباده

يستطلعون الأمر، وتبين للرسل خيانة اليهود وغدرهم؛ فحاول سعد بن معاذ؛ وكان حليفًا لبنى قريظة، أن يردهم عما بيّتوا من غدر، وخيانة، حتى لا يصيبهم ما أصاب يهود بنى قينقاع وبنى النضير نتيجة نقضهم لعهد رسول الله، ولكنهم صدُّوه وأعرضوا عن كلامه، وقال زعيمهم كعب بن أسد:

من رسول الله! لا عهد بيننا وبين مُحمّد ولا عقد!

وهكذا أعلنت بنو قريظة نقضها لعهد مُحمّد، وجاهرت بخيانتها وعداوتها للمسلمين، وبذلك حقّ لُمحمّد وللمسلمين محاربتها ومقاتلتها والاقتصاص منها.

وينجح (نعيم بن مسعود الغطفانى) الصحابى الجليل، فى الوقيعة بين اليهود والأحزاب، وتنتهى محنة المسلمين بنصر الله لجنده على جموع الأحزاب ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾[1]، ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾[2].

ونادى منادى مُحمّد فى أهل المدينة: من كان سامعًا مطيعًا فلا يُصلّين العصر إلا فى بنى قُريظة.

وحاصر المسلمون بنى قريظة حتى ضاقت بهم السُّبل، وأشرفوا على الهلاك، فأرسلوا إلى مُحمّد يطلبون منه أن يأذن لهم بالرحيل إلى أذرعات بالشام، كما أذن من قبل لبنى قينقاع، وبنى النضير.

وأبى مُحمّد إلا أن يحكم فى ذلك رجل من حلفائهم الأوس يرتضون حكمهُ، فاختاروا وارتضوا حكم سعد بن معاذ، وجئ بسعد محمولاً، وكان قد أُصيب بجرح بالغ فى حرب الأحزاب مع المسلمين. وأخذ سعد المواثيق من المسلمين واليهود، ثم أصدر حكمه فى بنى قريظة، وقضى بقتل الرجال، وسبى النساء والأطفال، وتقسيم الأملاك، وتوزيع الأموال.

---

(١) الأحزاب : ٩.

(٢) الأحزاب: ٢٥.

فلما سمع الرسول حكم سعد، قال:

«لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة» (أى سماوات)[1] وبهذا طهرت المدينة المنورة من اليهود.

ونُفذّ حكم سعد فى بنى قريظة، فقُتل رجالهم، وسُبى نساؤهم وأطفالهم، ولم ينُقذ من هذا الحكم إلا نفر قليل من بنى هُذيل أسلموا قبل أن يحكم سعد فى بنى قُريظة بحكمه، وكان فيهم ثعلبة بن سعية وإخوته.

وُوزّعت غنائم بنى قريظة على المسلمين، ومن بين السبايا اللاتى وقفن ينتظرن حكم المسلمين فيهن، كانت (ريحانة بنت عمرو) تبكى وتندب زوجها الحكم وهى تردد:

لا أستخلف بعده أبداً.

وقُسّمت السبايا، فكانت ريحانة من نصيب رسول الله، ورأى الرسول ما بريحانة من هَم وحزن، فأمر بإرسالها إلى دار أم المنذر بنت قيس حتى تسكن وتهدأ.

وبقيت ريحانة أيامًا بمنزل أم المنذر، تقوم أم المنذر برعايتها، والعناية بها حتى سكنت وهدأت.

ولما فرغ رسول الله من أمر ما تخلف عن موقعة بنى قريظة، جاء إلى بيت أم المنذر يزور سُرَيته ريحانة، فاستحيت ريحانة، ولجأت إلى ناحية من الدار تستتر فيها، فأمر رسول الله باستدعائها، فلما حضرت بين يديه، لاطفها، وسكّن روعها، وعرض عليها الإسلام، فأبت أن تُسلم، وأصرت على

(١) رواية ابن إسحاق، انظر ابن هشام: (١٧٦/٣)، فقد ألهم الله سعد بن معاذ أن يحكم فيهم حسب ما ورد فى التوراة التى فى أيديهم: ففى الإصحاح العشرين من تثنية الإشتراع جاء: حين تقترب من مدينة لكى تحاربها، استدعها للصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفُتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا، فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة، كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك.

يهوديتها، فغادرها النبى وقد تألم لسلوكها، ووجدت نفسه لعدم إسلامها.

وعرف ثعلبة بن سعية بما كان من ريحانة، وأحسّ بما فى نفس رسول الله، فانطلق إلى ريحانة يلومها على ما كان من موقفها من مُحمّد، ويزين لها الدخول فى الإسلام والإيمان بالله ورسوله.

وما زال ثعلبة بريحانة يحثها على الإسلام، ويقول لها:

اسلمى.. يصطفيك الله ورسوله! حتى استجابت نفسها لما دُعيت إليه، ومال قلبها، وتفتحت روحها للإسلام.

وبينما رسول الله يجلس يومًا مع أصحابه، إذ سمع وقع نعلين خلفه، فقال:

«إن هاتين لنعلا ثعلبة بن سعية، جاء يبشرنى بإسلام ريحانة» وما كاد الرسول يتم قوله، حتى كان ثعلبة يبشره قائلاً:

يا رسول الله؛ قد أسلمت ريحانة!

فسُرَّ الرسول لذلك أشد السرور.

ولما أسلمت ريحانة، عرض عليها الرسول أن يعتقها ويتزوجها، ويضرب عليها الحجاب، فأبت، وقالت: يا رسول الله، بل تتركنى فى مِلكك فهو أخفُّ علىّ وعليك!

وبقيت ريحانة فى ملكْ رسول الله يتردد عليها بين الحين والحين، وقد نزلت من نفسه أحسن منزَلة، حتى ماتت عقب رجوعه من حجة الوداع بقليل، فدفنها إلى جوار زوجته زينب بنت خزيمة بالبقيع.

المراجع

١ - القرآن الكريم.
٢ - كتب التفسير المعتمدة.
٣ - سيرة ابن هشام.
٤ - السيرة الحلبية.
٥ - الروض الأنف.
٦ - السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين.
٧ - الإصابة فى تمييز الصحابة.
٨ - أنساب الأشراف للبلاذرى.
٩ - سيدات نساء أهل الجنة للمؤلف.
١٠- زوجات الرسول - أميمة محمد على.
١١- تراجم سيدات بيت النبوة للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ).
١٢- وفاء الوفا للسمهودى.
١٣- سير أعلام النبلاء.
١٤- الطبقات الكبرى لابن سعد.
١٥- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر.
١٦- عيون الأثر لابن سيد الناس.
١٧- المحبر لابن حبيب.
١٨- حلية الأولياء لأبى نعيم.
١٩- المعارف لابن قتيبه.
٢٠- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.
٢١- عيون الأخبار.
٢٢- فقه سيرة نساء النبى ، سعيد هارون عاشور.

٢٣- مجموعة أمهات المؤمنين بإشراف محمد أحمد برانق.

٢٤- كتب الأحاديث والسنن الستة.

٢٥- اللؤلؤ والمرجان.

٢٦- جمهرة أنساب العرب.

٢٧- حياة محمد للدكتور هيكل.

٢٨- الصدِّيقة بنت الصديق للعقاد.

٢٩- تاريخ الملوك للطبرى.

٣٠- مجمع الزوائد للنور الهيثمى.

٣١- الشفا للقاضى عياض.

٣٢- تهذيب التهذيب.

٣٣- نسب قريش.

٣٤- معجم ما استعجم لأبى عبيد البكرى.

٣٥- خطط المقريزى.

الفهرس

الموضـــــوع	صفحة

رقم الإيداع ١٣١٥٤/١٩٩٦
ISBN
977-5215-95-1

